البحث عن السيدة وورنكي

الدور الذي يلعبه المعلمون في حياتنا

سيندي ريجزبي

ترجمة أسماء محمد عادل

البحث عن السيدة وورنكي

الدور الذي يلعبه المعلمون في حياتنا

تأليف
سيندي ريجزبي

ترجمة
أسماء محمد عادل

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

البحث عن السيدة وورنكي

Finding Mrs. Warnecke

سيندي ريجزبي

Cindi Rigsbee

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونديسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٢ ٠٠٦٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لجون وايلي أند صنز، إنك.

Copyright © 2010 by John Wiley & Sons, Inc. notice: All Rights Reserved. Authorised translation from the English language edition published by John Wiley & Sons, Inc. Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with Hindawi Foundation. and is not the responsibility of Wiley. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder, John Wiley & Sons.

المحتويات

من أفضل ما قيل عن الكتاب	٧
إهداء	٩
شكر وتقدير	١١
تقديم	١٥
مقدمة	١٧
١- البحث عن النجوم	٢١
٢- تحسس الطريق	٣٣
٣- إقامة العلاقات	٤٥
٤- سبر أغوار السحر	٥٩
٥- البحث عن الحافز للاستمرار	٧٧
٦- اكتشاف الأحلام	٨٧
٧- البحث عن السيدة وورنكي	٩٥
٨- التفكر في الأمر	١٠٩
خاتمة	١١٩
كل شخص لديه سيدة وورنكي في حياته	١٢١

من أفضل ما قيل عن الكتاب

«أشكر سيندي؛ فقد أثبتت لنا أن التدريس أمرٌ فوضوي وساحر في الوقت نفسه. فمن خلال قصصها التي تدور حول تلاميذ يعانون مشكلاتٍ شخصيةً قاهرة، وفصول دراسية قديمة بها أقل قدرٍ من الأدوات، ومعلمة شابة مثالية تملؤها الحماسة، تكشف لنا أن التدريس الناجح يكمن في حب التلاميذ، ومساعدتهم على إدراك مكانتهم واحترام ذاتهم ...»

«وأنا أقرأ هذه القصة الملهِمة تذكَّرت أساتذتي المميزين الذين غيروا حياتي. إن سيندي لا تكتفي بإقناعنا بدور التدريس في تغيير حياة الناس، بل تذكرنا أيضًا أن هذا التغيير هو جوهر عملية التدريس. وقد شعرت بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب بالحماس الشديد، والاستعداد التام للتدريس لأيام كثيرة قادمة.»

جزء من تقديم دونالين ميلر، معلمة المهارات اللغوية للصف السادس، ومؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «الهامسون بالكتب»

«يؤكد هذا الكتاب على «دور» المعلمين العظماء في تغيير حياة الشباب. ويكشف أيضًا «السر» وراء عظمتهم؛ فهم يرون أنفسهم وفصولهم بأعين تلاميذهم.»

دكتور جيمس كانينجهام، الأستاذ الفخري بجامعة كارولينا الشمالية بتشابيل هيل، والمؤلف المشارك لكتاب «الأمور المهمة فعلًا في الكتابة»

«تبدأ كل رحلة استكشافية بإيمان قوي بضرورة العثور على شيء أو شخص ما. وكتاب «البحث عن السيدة وورنكي» للمؤلفة سيندي ريجزبي يستحق البحث

عنه. فهو أكثر من رحلة بحثٍ عن معلمة من مرحلة الطفولة؛ إنه يُعلي قيمة البحث عن شيء ضاع داخلنا جميعًا.»

أنتوني جيه مولين،
الحائز على لقب معلم العام على المستوى الوطني لعام ٢٠٠٩

«في كل مرةٍ أقرأ كلمات سيندي أو أسمع قصتها أبكي ... فهي تعيدني لأيام معلمتي السيدة بيري التي بفضلها أصبحت معلم علوم، وحققت ما وصلت إليه الآن. يعرض كتاب «البحث عن السيدة وورنكي» رحلة نفسية ومهنية عظيمة، وهو عمل سيحرص كل معلم قدير على قراءته.»

إليك سينتر، عضو ببرنامج زملاء التدريس بكارولينا الشمالية،
ومستشار لرابطة معلمي كارولينا الشمالية،
وعمدة مدينة فرانكلينتون بنفس الولاية

إهداء

إلى بابرا وورنكي التي ساعدَتْني على التعرُّف على نفسي في سن السادسة، ثم في سن الخمسين. أقدم بالغ شكري إلى «السيدة المعلمة».

شكر وتقدير

ثمة سببٌ وراء كتابة المؤلفين صفحة الشكر والتقدير، وهو أن أحدًا لا يؤلف كتابًا وحده. لقد ترك الكثيرون بصمتهم في حياتي وأنا معلمة، والآن وأنا مؤلفة، وإذا حاولت كتابة قائمةٍ بأسمائهم فربما تكون أطول من الكتاب نفسه. لكنني سأحاول.

في البداية أتقدم بجزيل الشكر للقائمين على إدارة المدارس التي عملت بها؛ لأنهم أتاحوا لي الفرصة للتدريس، ولم يفقدوا الأمل فيَّ عندما لم أكن بالبراعة المطلوبة، ولأنهم شجعوني وساعدوني على التقدم مهنيًّا؛ أشكر إديسون واتسون ووين أدكوك ووينستون كيرلي، وداني توماس وريموند باريس وكالفين دوبينز، وهوانيتا جونز وآدا سيتزر وباربرا هيستينجز، وريتش كوزاك، ومديريَّ الحاليين جيسون جونسون وتيفاني ستيوارت وجريج هيكس، الذين علموني الكثير عن عملية التدريس.

إن قائمة المعلمين الذين ألهموني، وعملوا معي في أصعب الظروف، وعرفوني على شخصية المربية بداخلي؛ طويلة، لكن دعني أذكر بعضهم: لين تشيرش وفريد ويستبروك وبيث ستريكر، وماريان ساليار وكيم ستريكلاند وشيرلي مول، وجين رانسام وإريك كولنز وكارلا كيركلاند، وجرايلينج ويليامز وأليسا جريفيث وكيلي سكيرس، وميشيل نيز وجادسون باريش وأليس هاجامان، وفيكي بوكنر، وأشكر على وجه الخصوص صديقاتي المقرَّبات للأبد هيذر والتون وكريستي واتسون وجيني فرويدنبيرج، وكيلي كابلان وإيمي ريتشاردسون — لقد لعب كلٌّ منكم دورًا في جَعْلي معلمة مميزة. لذا شكرًا لكم.

أتوجه بالشكر لمدارس مقاطعة أورانج، والعاملين بمدرسة جريفلي هيل الإعدادية؛ لوقوفهم بجواري ونحن نعمل بجدٍّ من أجل أطفال مقاطعة أورانج. لم يسبق لي قط العمل مع مجموعةٍ حريصةٍ على التفوق مثلهم، وأقول لهم: أتحسن مع كل يوم أقضيه معكم، وأنا أفخر بالعمل معكم.

كنت محظوظةً للغاية بحصولي على لقب «معلم العام» في ولاية كارولينا الشمالية، مما أتاح لي فرصة العمل مع نخبة المربين الذين لقَّنوني أرفع معايير المعلم الناجح. وأشكر جميع الأشخاص الرائعين الذين قُدِّر لي العمل معهم في برنامج معلم العام: دان هولومان وبيج إليوت وتريشا ميوز، وبرنارد وو وروث آن باركر وسونيا راينهارت، وفريدا بيكر ورينيه بيبولز وجانيس ريبر، وكارولين سنيدن وديانا بيزلي وفيكي ريفنبارك، وجينجر هولواي ومونتي كوجينز ومايك شو، ووااندا فيرناندیز وكاثرين ألان، وجميع المعلمين الحاصلين على لقب معلم العام على مستوى الولايات عام ٢٠٠٩، القريبين من نفسي في جميع أنحاء البلاد.

وأقدم شكري لبارنيت بيري وآن بيرد وأليس ويليامز، وجميع العاملين في مركز جودة التدريس؛ لأنهم أتاحوا لي الفرصة للمشاركة في «شبكة قادة المعلمين» التي تعتبر بمنزلة جنة المعلمين. لقد تعلمت منهم ومن بعض أبرع المعلمين في البلاد خلال العامَين الماضيَين، أكثر مما تعلَّمت من أي برنامج تطوير مهني آخر خضعت له.

وأشكر هؤلاء الذين شجعوا رغبتي في الكتابة؛ فأشكر جون نورتن، محرر أعمالي، وأقول له إن إيمانك بقدرتي على الكتابة أمدَّني بالثقة اللازمة لنشر مقالاتي في مجلة «تيتشر ماجازين». فبدون كل من شجعني لم أكن لأفعل شيئًا. أنا ممتنَّة لهم للأبد. أشكر هولي هولاند لأنها ساعدَتني على فَهْم دقائق عملية التأليف. وكانت صبورة في منحي معلومات قيِّمة منذ البداية. وأشكر المحررتَين بدار نشر جوسي باس، مارجوري ماكانيني وليزلي تيلي، اللتَين وثقتا بامرأةٍ لا تعرفانها، وحولتا الأفكار إلى أعمال ملموسة، وجعلتاها كاتبة. لقد تركَت هذه التجربةُ في نفسي أثرًا لا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عنه.

لا يمكنني أن أنسى «صديقتَيَّ المقرَّبتَين اللتَين لا أقابلهما كثيرًا»، لولا أوزبورن وإيفالي باركر، أشكركما على الوقوف دائمًا بجانبي. أقول للولا: مهما بعدَت المسافة بيننا، فأنت تستطيعين دائمًا أن تجعلينا قريبتَين بعضنا من بعض. لقد وقفتِ بجواري عشرين عامًا، مما أمدني براحة كبيرة. وأقول لإيفالي: عندما أخبرتك أن خمسة وعشرين ناشرًا رفضوا نشر كتابي، طلبتِ مني أن أراسل الناشر السادس والعشرين. أشكرك لأنك لم تفقدي الأمل في الوقت الذي كدت فيه أن أفقده.

وأقول لزوجي ديفيد — الذي شعر بالسعادة أكثر من أي شخص آخر على مدار رحلتي مع التأليف — لولاك لمتُّ من الجوع. أشكرك لأنك دعمتني بلا قيدٍ أو شرط. وأقول لأبنائي هيذر وكيلي وإيرين وويل: كنتم مصدر إلهامي الدائم أثناء عملية الكتابة، وكنتم

«تلاميذي» في المنزل، على الرغم من أنني أعرف أنكم في بعض الأوقات تَمنَّيتم أن تشغل أمكم/زوجة أبيكم أي وظيفةٍ إلا التدريس. شكرًا لأنكم تساهلتم معي وتحملتم بعض تصرفاتي المجنونة. فالجنون قد يكون إبداعًا أحيانًا، وقد تفهمتم ذلك. أما أحفادي ريجان وكانون وتيلور وبايبر وبيلي، فإنكم دائمًا أفضل وسيلة ترفيه متاحة لكاتبةٍ منهكةٍ مثلي. شكرًا لإضفاء جوٍّ من البهجة على حياتي لم أكن لأتخيَّله قط. وأقول لأخي وأختي جيم وليزا: شاركتماني الحياة التي حاولت جاهدةً أن أصورها في الكتاب بدقة. عزيزي جيم: ليتني أتمتع بنصف موهبتك في الكتابة. عزيزتي ليزا: وقفَت إحدانا بجوار الأخرى خمسين عامًا. أتمنى أن نكمل خمسين عامًا أخرى. أمي: أنتِ أول معلمة عرفتها في حياتي، ولم تفقدي الأمل فيَّ كلما أخفقت في حياتي، وهو ما حدث كثيرًا. وأنا سعيدة أنني حظيت بأمٍّ مثلك. أبي: يحزنني بشدة أنك لست معي ولست جزءًا من هذا الحدث المدهش. لكنني شعرت بوجودك مع كل كلمةٍ كتبتها. وأنا متأكدة أنك في مكان أفضل الآن.

وأقول للسيدة وورنكي: بالطبع، لولاك ما ألفت هذا الكتاب. أشكر براين أوكيف والعاملين في برنامج «جود مورنينج أمريكا» لأنهم عثروا عليكِ بعد خمسة وأربعين عامًا، وكم يسعدني أن نقضي أيامنا القادمة معًا لتبادل أخبار السنوات الماضية. أشكرك على موقفك من تأليفي هذا الكتاب الذي تجلى في قولك: «اذكري كل شيء ... العبارات والأوصاف والذكريات. لا توجد أي قيود.» امتناني لك لا حد له.

وأخيرًا أشكر طلابي بولاية كارولينا الشمالية الذين يتجاوز عددهم الألفين، والذين جاهدوا رغم الصعاب الشديدة للبقاء في فصولهم، والإنصات إليَّ على مدار الثلاثين عامًا الماضية؛ تأثرت كثيرًا بحماسكم وطاقتكم، وأصبحت قادرة على منح الحب لأنني تلقيته منكم. عندما سأنظر لهذا الكتاب في المستقبل، سأرى وجوهكم تطلُّ منه. يسعدني جدًّا أنني تعرَّفت عليكم، وأتمنَّى أن أكون قد تركت أثرًا في نفوسكم.

تقديم

بقلم دونالين ميلر

إن شهرة سيندي ريجزبي تسبقها؛ فهي صاحبة لقب معلم العام في ولاية كارولينا الشمالية، وإحدى المرشحين النهائيين للحصول على لقب معلم العام على المستوى الوطني، وخبرتها تزيد عن عشرين عامًا في التدريس، وهي معلمة موهوبة وقديرة. لقد تعرفت على سيندي أثناء عملنا في شبكة قادة المعلمين. وعندما قرأت المقالات الحماسية التي نشرتها على الإنترنت حول العمل مع الطلاب، ألهمني منهجها العملي في التدريس.

تمزج سيندي بمهارة شغفها ومنطقها السليم وخبرتها وعاطفتها تجاه التلاميذ، لتقدِّم لنا هنا قصةً آسرة. ومع أن مهاراتها في التدريس تطوَّرت مع مرور السنين بالتجربة والخطأ، فإنها تؤمن أن الدروس التي تعلَّمتها منذ نصف قرن تقريبًا في فصل السيدة باربرا وورنكي، رسمَت أول خطوات قطعتها نحو إتقان التدريس. فبعد أن التحقت سيندي بالصف الأول الابتدائي بدَت البداية صعبة؛ إذ وجدت نفسها في فصلٍ مزدحمٍ مع معلمةٍ بدا أنها تكره الأطفال، ثم نُقلت سيندي وبعض التلاميذ الآخرين إلى فصل معلمة جديدة، وكان الفصل غرفةً في قبو تزحف الديدان على حيطانها. ولم يخطر ببال سيندي آنذاك أن هذا المكان سيصبح أحد أماكنها المفضلة.

أشاعت السيدة وورنكي جوًّا من الحب والسعادة في تلك البيئة التعليمية، التي شعر فيها كل طفل أنه مميز. وزرعت في سيندي البذور الأولى لحب القراءة والكتابة، وشجعتها على نَظْم الشعر وقدمت لها الكتب لتقرأها. آمنت السيدة وورنكي بقدرات تلاميذها، وأكدت لهم — بأقوالها وأفعالها — أنها تثق في قدرتهم على تحقيق الكثير، وظلت تشجعهم. وفور

أن أصبحَت سيندي معلمة، بدأت دروس الحب والقبول التي تعلمتها من السيدة وورنكي تحدِّد معالم منهجها في التدريس. تقول سيندي: «بدأت أدرك أن قبول جميع تلاميذي، بعيدًا عن الصعاب التي يواجهونها يوميًّا في حياتهم، سيكون سر نجاحي في تعليمهم.»

قرأت كتبًا عديدة كتبها «معلمون بارعون»، يبدو أن لديهم طريقة سحرية في قيادة الفصول، وتصميم طريقة التدريس، وتشجيع الأطفال. لكن رحلتي في التدريس لم تكن سلسة، بل كانت فوضوية. فلم يكن بمقدوري قط أن أحقق نتائج عظيمة كالتي حققها هؤلاء المعلمون، مما دعاني كثيرًا للشعور بقلة براعتي، والتشكيك في قدراتي.

أشكر سيندي؛ فقد أثبتت لنا أن التدريس أمر فوضوي وساحر في الوقت نفسه. فمن خلال قصصها التي تدور حول تلاميذ يعانون مشكلات شخصية قاهرة، وفصول دراسية قديمة بها أقل قدر من الأدوات، ومعلمة شابة مثالية تملؤها الحماسة، تكشف لنا أن التدريس الناجح يكمن في حب التلاميذ، ومساعدتهم على إدراك مكانتهم واحترام ذاتهم. وهي تؤمن أن كل شخص منا حظي يومًا بمعلمة مثل السيدة وورنكي، أي، معلمة مميزة تركت أثرًا في حياته، وتناشدنا أن نصبح جميعًا السيدة وورنكي لنغير حياة تلاميذنا. نحن «نستطيع» أن نحدث فارقًا؛ فيمكننا أن نؤثر في حياة تلاميذنا بوسائل قد لا تخطر لنا ببال.

غيَّرت السيدة باربرا وورنكي حياة الصغيرة سيندي كول في الصف الأول؛ ومن ثَم غيرت حياة كل تلاميذ سيندي ريجزبي. وأنا أقرأ هذه القصة الملهِمة تذكرت أساتذتي المميزين الذين غيروا حياتي. إن سيندي لا تكتفي بإقناعنا بدور التدريس في تغيير حياة الناس، بل تذكرنا أيضًا أن هذا التغيير هو جوهر عملية التدريس. وقد شعرت بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب بالحماس الشديد، والاستعداد التام للتدريس لأيام كثيرة قادمة.

مقدمة

نحن في يناير عام ٢٠٠٩. وأنا أجلس في مقعد «مستشار المعلمين» بمجلس ولاية كارولينا الشمالية التعليمي. إنه لشرف كبير أن أكون هنا، وهو منصب أنظر إليه بجدية تامة، وأستشعر ذلك كلما حضرت إلى هنا. أحيانًا تصورنا كاميرات الأخبار، وأسأل نفسي هل يشاهدني الأشخاص الجالسون في منازلهم، ويسألون ماذا فعلَت تلك المعلمة القادمة من مقاطعة أورانج الريفية بكارولينا الشمالية لتنال هذا الشرف. أجول بناظرَي في الغرفة بين صفوف الحاضرين، فأجد أنهم أشخاصٌ ذوو مكانةٍ رفيعة على الساحة التعليمية في ولايتي؛ العاملون في وكالة التعليم العام بالولاية، وممثلون من مختلف المنظمات التعليمية، وضيوف يبدو أنهم يقدِّرون العملية التعليمية هنا. ثم أنظر حولي إلى أعضاء المجلس، وهم جماعة همُّها الأكبر مصلحة أطفالنا، جماعة منغمسة بالفعل فيما يحدث في فصول ولايتنا. في هذه الغرفة تُناقَش سياسة التعليم، وتُقَر بعد أن تحظى بموافقة الأغلبية. وأندهش دائمًا عندما أجد نفسي طرفًا في ذلك.

سألت نفسي أكثر من مرة طوال الستة أشهر التي قضيتها في منصب مستشار المعلمين في المجلس: «لماذا اختاروني أنا؟» أعلم أن الاختيار وقع عليَّ لأنني حزت لقب معلم العام في كارولينا الشمالية خلال الأشهر القليلة الماضية، لكن هذا السبب بالذات يجعلني أسأل نفسي باستمرار: «لماذا أنا بالذات؟» كثيرًا ما أفكِّر في آلاف المعلمين القديرين في ولايتي، ثم أتساءل كعادتي إن كنت أمثِّلهم خير تمثيل. ثم قطع حبلَ أفكاري صوتُ رئيس المجلس وهو يعلن بَدْء استراحةٍ مدتها خمس دقائق.

لاحظت أن المشرفة على التعليم العام بالولاية دكتورة جون أتكينسون تلوِّح لي من مقعدها الذي يتصدَّر طاولة المجلس. وكانت تُشير إليَّ أن أذهب باتجاه الرواق. وعندما

التقيتها في ركنٍ من أركان الرواق بجوار المصاعد تمامًا استقبلَتْني بابتسامةٍ عريضة. لم أتخيَّل ما كانت على وشك أن تخبرني به.

أمسكت يديَّ ووقفت قبالتي كما لو كنا طالبتَين صغيرتَين في ملعب المدرسة. ثم قالت: «سيندي، وردني اتصال من مجلس كبار مسئولي مدارس الولاية. لقد وقع عليكِ الاختيار لتكوني المرشحة النهائية الرابعة للقب معلم العام على المستوى الوطني.» شعرت بالدم يهرب من عروقي، ورجوتُ ركبتيَّ في صمتٍ ألَّا تتركاني أسقط على الأرض. ولم أنطق إلا بكلمات استغراب، وبعباراتٍ انفعاليةٍ مثل: «أنتِ تمزحين!» و«هل أنتِ متأكدة؟» وقبل أن تجيبني دكتورة أتكينسون استدعوها بالداخل لبضع لحظات، فدخلَت وتركتني وحدي أستوعب النبأ المفاجئ، أو بالأحرى المفرح.

عُدت إلى مقعدي ورأسي يدور، وحاولت أن أظلَّ منتبهةً فيما بقي في الاجتماع. فكرت عدة مرات وأنا أؤدي مهام معلم العام أن هذا الأمر لن يستمر طويلًا … أن العالم سيكتشف في يوم من الأيام حقيقة بدايتي المتعثِّرة في مهنة التدريس. أنا دائمًا أردِّد أمام جماعات المعلمين أنني تعثَّرت في بداية عملي في التدريس. لكنني لم أعُد واثقة أن «تعثرت» هي الكلمة المناسبة. فربما كان يجدر بي أن أقول بصراحة إنني «فشلت». لعلي لم أعلم ما يجب فعله، أو لم أجد الدعم الكافي الذي احتجت إليه. على أي حالٍ بدأت أفهم سبب خوفي وأنا جالسة هنا؛ خشيت أن يظهر طالب أو زميل سابق ويقول: «كنت معها في أول عام تمارس التدريس. ولم تكن جيدة. وهي بالتأكيد لا تستحق لقب معلم العام في ولايتها.»

أنا متأكدة من أمر واحد: لا بد أن أتحلَّى ببعض الثقة لأنجح في القيام بدوري الجديد — كوني أحد المرشحين النهائيين لنيل لقب معلم العام على المستوى الوطني — وإلا فـ «سينتهي أمري» على حد قول تلاميذي. فكرت في الأمر خلال الاستراحة. وسألت نفسي: لماذا اختاروني لهذا التكريم؟ كيف انتقلت من تقدير «أقل من المتوسط» إلى مرشحة نهائية للقب معلم العام على المستوى الوطني؟

وضعت قائمة بإجابات أسئلتي على ظهر إحدى الأوراق التي وُزعت علينا، وكما هو متوقع كان أول ما كتبته كلمة «العلاقات». فأنا على يقين أن أي نتائج إيجابية حققتها في حياتي المهنية تعتمد على العلاقات. إن علاقاتي مع تلاميذي تحفزني كل يوم على النهوض من الفراش صباحًا، والسير في الطريق بين الولايات، والتوجه إلى المدرسة التي أعمل بها. مر عليَّ وقتٌ لم أدرك فيه أهمية إقامة علاقات مع الأطفال الذين أرعاهم. أما الآن فقد مضى هذا الوقت وأصبح من الماضي السحيق.

كانت الكلمة الثانية التي كتبتها هي «السحر». فأحد الأمور التي ساعدتني على أن أكون معلمة جيدة هو الجهد الذي بذلته لأجعل الفصل مكانًا ساحرًا. هدفي هو أن أغرس في التلاميذ الرغبة في التعلم، ويساعدني على تحقيق هذا الهدف بثُّ الدفء والبهجة في الجدران الأربعة للفصل والسبورة ومقاعد التلاميذ. أشعر أن نشر هذا الجو العائلي مهمٌّ جدًّا؛ لذا فإن العثورَ على عناصر «ساحرة» تجذب التلاميذ للفصل أحدُ أهم أهدافي.

ثم عدت بذاكرتي إلى الفصل الذي أدرِّس فيه في بلدتي، وتذكرت عبارة «مهما تطلب الأمر» المكتوبة فوق السبورة في مقدمة الفصل. فتعهُّدي بأداء كل ما يلزم لضمان أن يكون فصلي بيئةً تعليميةً آمنةً وسعيدة؛ أحد الأسباب التي مكنتني من نسيان سنوات تعثري الأولى، وجعلتني أصر على ترك أثر جيد. أدرك أنه ثمة أوقات يكون العمل فيها شاقًّا، ويدوم لساعات طويلة، لكنني ملتزمة بأداء كل ما يجب لإحداث فارق في حياة تلاميذي.

آخر كلمة كتبتها في القائمة هي «الأحلام». لا أشعر بضرورة كتابة تفاصيل بجوار هذه الكلمة. فأنا أعلم تمامًا معناها، حتى إن تلاميذي أطلقوا عليَّ اسم «معلمة الأحلام» منذ نحو خمسة عشر عامًا. أنا أُومِن بأهمية الأحلام، وبأهمية السعي بشغف ومثابرة لتحقيقها. وأخبر تلاميذي بذلك في أول يوم دراسي وعلى مدار العام. وأشجعهم على تحقيق أحلامهم ورغباتهم.

ها أنا ذا أجلس هنا، شاردة الذهن، أحدق في تلك الكلمات التي كتبتها على عجل على قصاصة ورق. وأقول لنفسي: «يبدو أن هناك بعض الأمور التي جعلتني معلمة جيدة، وقد أوشكت على اكتشافها.»

ثم تزداد أفكاري وضوحًا: «أعرف ما يجب عليَّ فعله حيال الأنباء التي تلقيتها للتو.»

«يجب أن أتصل بالسيدة وورنكي.»

الفصل الأول

البحث عن النجوم

«كانت بيننا علاقة آنذاك.»

باربرا وورنكي، ٥ سبتمبر ٢٠٠٨

بدأ أخي جيمي يرتاد المدرسة عندما وُلدت، ومن أقدم ذكرياتي مشهد ذهابه إلى المدرسة كل يوم، وبقائي بمفردي أفكر في المستقبل، وفي اليوم الذي سأتمكَّن فيه من ارتياد «المدرسة الكبيرة». كنت أقضي وقت ما بعد الظهيرة جالسة بجوار النافذة العريضة في غرفة الجلوس، أحدق إلى الخارج في انتظار قدوم حافلة المدرسة الصفراء الكبيرة، وأترقب سماع صوت صرير مكابحها الهوائية عندما تقف أعلى التل، لتُنزل جيمي أمام المنزل.

وأخيرًا حان وقت ذهابي للمدرسة في أغسطس عام ١٩٦٣. ويوم أن اصطحبتني والدتي إلى متجر بيك آن باي لشراء حذاء المدرسة، شعرت بأنني فتاة كبيرة. في ذلك الوقت كان يجب على الفتيات ارتداء الفساتين، ولتساير الأحذية فساتيني، ابتاعت لي أمي حذاءً أبيض وأسود لم يعجبني، وحذاءً من الجلد الأسود اللامع أعجبني كثيرًا. وقد سمَّيت الاثنين «حذاءَيْ مدرسة الأحد». وعلى مدار أعوام، كنت كلما سمعت صوت فرقعة أحذية على أرضية خشبية، تذكرت حذاءَي مدرسة الأحد. ولما كانت والدتي حائكة ماهرة فقد حاكت معظم فساتيني. وزينتها ببراعة بالأشرطة والتطريز. وعندما تقرر أن تكون المريلة مربعة النقش الزي الرسمي للصف الأول ذلك العام، حرصت أمي أن أذهب إلى المدرسة في أفضل زيٍّ يمكنها تحمُّل نفقاته.

في ذلك الوقت، في بلدة دوريم بولاية كارولينا الشمالية — حيث نشأت — لم تكن هناك مدرسة رياض أطفال عامة؛ لذا بدأت أرتاد المدرسة في الصف الأول. ولأنني وُلدت

في شهر سبتمبر كنت عادة أصغر طالبة في فصلي، وغالبًا ما كنت أبدأ عامي الدراسي وأنا أشعر أنني متأخرة عن الجميع. لكن صفي الأول كان مختلفًا. فلم أكن أعلم أنني أصغر الجميع سنًّا، وكنت أشعر بسعادةٍ غامرة. لم أكن يومًا طفلة هادئة في المنزل، وأنا على يقين أن والديَّ كانا على أتم استعداد لإرسالي إلى المدرسة بقدر استعدادي للذهاب إليها؛ إذ كنت سأستنفد بعض طاقاتي هناك بالتأكيد.

لكن عندما ذهبت أخيرًا إلى مدرسة براجتاون الابتدائية، تحطم قلبي. فلم تكن المدرسة كما حلمت بها، مع أننا بدأنا بتعلم القراءة، وهو حلم كل طالب في الصف الأول. وضعوني في مجموعة الطيور الحمراء، وبالرغم من أنني كنت في الخامسة، فإنني كنت أدرك أن الطلاب في مجموعتنا يقرءون أفضل من الطلاب في مجموعة الطيور الزرقاء، ومجموعة الطيور السوداء. لكن **ثمة مشكلة واحدة حالت بيني وبين أن أكون طالبة صغيرة سعيدة في الصف الأول الابتدائي: لقد كانت معلمتي تكرهني.**

لقد بدت لي السيدة رايلي وكأنها على الأقل في التسعين من عمرها، بشعرها المجتمع في كتلة مستديرة غير منتظمة أعلى رأسها، ونظارتها العتيقة المرعبة التي تقبع على أنفها. لا أذكر أنها ابتسمت مطلقًا، إلا عندما كانت تتحدث مع طالبة واحدة؛ اسمها شيلا.

كانت شيلا طفلة جميلة، زرقاء العينين، شقراء الشعر، ملائكية الملامح. كانت تشبه الدمى، وقد حاول كل مَن في الفصل أن يصادقها. أذكر اليوم الذي أخبرتني فيه عن مكان منزلها، قائلة: «إنه خلف متجر الحلوى مباشرة.» حينئذٍ فقط أدركت أنها فتاة مسحورة.

حملت والدتي ووالدة شيلا مسئولية تنظيم كل حفلات الفصل، وضمان توفير الكعك في المناسبات المدرسية كافة. وعندما كانتا تتقابلان للتخطيط للحفلات، كانت تتاح لي الفرصة لزيارة منزل شيلا الواقع خلف متجر الحلوى مباشرة. كان المنزل بمنزلة مدينة ألعاب، بما في ذلك الدمية باربي وكل متعلقاتها. وكان هناك ركنٌ خاصٌّ بشيلا في المنزل تحتفظ فيه بمتعلقات دميتها باربي، مثل منزلها وسيارتها وحمام سباحتها، وكل شيء يخصها.

في منزلي كنت أجمع بعض أوراق الشجر وأضعها في قِدر، ثم أحركها كأنني أطبخ، أو أحضر ملابس وألبسها للقطة (التي كانت غير مريحة مثل باربي). وكنت ألعب أنا وأختي في الساحة الخالية خلف المنزل، التي كانت مكبًّا للنفايات كالأنابيب القديمة وقطع الخرسانة وألواح الخشب. واعتدنا أن ننادي أمي قائلين: «سنذهب للعب في ساحة الخردة»، ثم نخرج إلى ما اعتبرناه ساحة لعب. لهذا لاحظت اختلاف العالم الذي تعيش فيه شيلا،

تمكنت بالكاد من الابتسام في الصف الأول.

وأدركت ذلك سريعًا، لكنني لم أحسدها لأن الأطفال الصغار الأبرياء لا يحملون مثل هذه المشاعر. فهي صديقتي التي أحبها.

أحبتها السيدة رايلي حبًّا جمًّا ولم تحاول إخفاء ذلك عن طلاب الفصل. فكلما كانت تعلن أنها تحتاج من يذهب لقضاء حاجة لها، كنت أزحف إلى طرف مقعدي، وأرفع يدي إلى أعلى نقطة ممكنة كي تختارني. لكن الاختيار كان يقع دومًا على شيلا؛ فشيلا هي التي تذهب، وشيلا هي التي تجمع نقود الأيس كريم والحليب، وشيلا هي التي توزعهما. ولاحقًا في الصف الخامس، شيلا هي التي لعبت دور الساحرة الجميلة جليندا في مسرحية «ساحر أوز» التي قدمتها مدرسة براجتاون.

بعينيَّ البنيتَين وشعري الأسود الأشعث، كان حَرِّى بي أن ألعب دور ساحرة الغرب الشريرة أمام شيلا، الساحرة الطيبة. وقد كنت نحيفة؛ فمهما تناولت من طعام، بدا أن وزني لم يكن يزيد قط بنفس معدل ازدياد طولي. كنت واثقة أنني لو كنت أجمل أو أشقر مما أنا عليه، أو لو كان منزلي مليئًا بالدمى، لأحبتني السيدة رايلي أكثر. لكنني كلما

حاولت إرضاءها زاد سخطها. أذكر مدى استيائها ونحن نقرأ. فنطق أي كلمة خطأً يمكن أن يجعلها بسهولة تعبس أو تغضب. (بالطبع لم أكن الطالبة الوحيدة التي تتلقَّى تلك النظرات؛ فقد أحجمَت إحدى صديقاتي في مجموعة الطيور الزرقاء عن القراءة تمامًا، بعد أن أصابها الذعر الشديد من نظرات السيدة رايلي المخيفة.) وبعد أن كنت طالبة متحمسة للمدرسة أصابني الصف الأول بإحباط شديد.

الدخول إلى القبو والخروج من الظلمة

بعد مرور شهر على بدء العام الدراسي حضر مدير المدرسة إلى الفصل، وأخبرنا أن عدد الطلاب كبير في الفصل. عاودني الحماس مرة أخرى، عندما فكرت في إمكانية حصولي على معلمة أخرى. ثم بدأ المدير يقسمنا إلى مجموعتَين. وعندما نادى اسمي غمرتني السعادة لاختياري ضمن الطلاب الذين سينقلون إلى فصل آخر.

لاحقًا — بعد أن أصبحت معلمة — أدركت أن عملية الاختيار تمَّت على الأرجح بتفقُّد السيدة رايلي العجوز قائمة أسماء الطلاب في فصلها، وشطب أسماء أولئك الذين لا ترغب في بقائهم. لكن اتضح أن هذا الرفض ربما كان شيئًا إيجابيًّا. فما حدث في الأشهر القليلة التالية عزَّز من ثقتي في نفسي وتقديري لذاتي، وترك أثره في اختياري لمهنتي وفلسفتي في التدريس فيما بعد. عمومًا يمكن إرجاع الفضل في كل هذا إلى شخص واحد: المعلمة باربرا وورنكي البالغة في ذلك الحين ثلاثة وعشرين عامًا.

إليكم ما حدث كما أذكره: طلب منا المدير أن نصطف في فصل السيدة رايلي، ثم اقتادنا إلى آخر الرواق، فكنا نسير ونحن ندق بأحذيتنا الصلبة الأرضية الخشبية المشمعة التي تعود إلى أربعين عامًا مضت، ثم خرجنا من الباب الخلفي الذي يؤدي إلى صالة الألعاب الرياضية. كانت المرة الوحيدة التي دخلت فيها صالة الألعاب الرياضية العتيقة ذات السقف العالي، عندما تعلمت رقصة الهوكي بوكي التي نحرِّك فيها كل أجزاء جسمنا. كانت القاعة مترية بحيث واجهت صعوبة في التقاط أنفاسي، وأفزعني أن يكون فصلنا الجديد في ذلك المكان. ثم اتجه المدير إلى اليسار بعدما وصل إلى باب القاعة، وهو ما أراحني كثيرًا، وسار حتى آخر الممر الأسمنتي. وفجأة اتجه يسارًا مرة أخرى، وهو تصرف لا معنى له. فلم يكن هناك فصل، بل بضع درجاتٍ لأسفل تؤدي إلى القبو.

لم يسبق أن أعرنا هذا المكان الرطب أي اهتمام ونحن نركض بجواره في طريقنا إلى ملعب المدرسة، لكن المدير نزل درجات السُّلَّم ونزلنا وراءه كصغار البط. بالأسفل وجدنا

غرفة تحمل بعض الشبه بالفصول الدراسية. فهي تضم مقاعد خشبية ثقيلة وسبورة سوداء. خلف باب الخزانة الذي فتحه أحدهم عنوة، رأينا عينَين صغيرتَين براقتَين تحدقان إلينا. فابتسم جون — ألطف صبي في الصف الأول — ابتسامة عريضة وأخبرنا أنه جرذ، وظل الصبيان الأكبر سنًّا طوال العام يهددون بقيتنا بفتح ذلك الباب. اعتاد الجميع في ذلك العام — المتنمرون والضحايا — تعليق معاطفهم على خطافات مثبتة بالحائط في الخلف.

جلسنا على المقاعد الكبيرة وانتظرنا. تحسست بإصبعي الحروف التي نقشها طالب سابق على المقعد منذ زمن بعيد. وللحظات ظننت أن المدير سيعود ويصطحبنا لأعلى، ليعيدنا للسيدة رايلي وشيلا. حينئذٍ دخلت السيدة وورنكي، وهي معلمة شابة شعرها مقصوص قصة بوب ومصفف للخلف، وابتسامتها أضاءت الغرفة بأكملها. بدَت سعيدةً لوجودها معنا — ومعي — ولم تبدُ خائفةً البتة من الخزانة. قدَّمها المدير لنا ونطق لنا اسمها ببطء «وورنكي»، ومع ذلك لم نتمكن من نطقه نطقًا سليمًا. وظللنا لشهور ننناديها «السيدة المعلمة». ووزعت علينا كتب «ديك وجين» الخاصة بالقراءة وبدأنا العمل الجاد.

أذكر أنني كنت مشتتة أول يوم لي في فصل السيدة وورنكي. إذ شغلني التفكير في الوقت اللازم للذهاب إلى الحمام. فالفصل في «الخارج». ونحن طلاب صغار في الصف الأول. في اليوم التالي قررت إيجاد حل لهذه المشكلة. واستأذنت السيدة المعلمة في الخروج كما علمتني أمي. صعدت سلم القبو وقطعت الممر بين صالة الألعاب ونهاية رواق فصول الصف الأول، وصعدت السلم ثم دخلت المبنى. وما إن فتحت الباب المؤدي للرواق حتى ندمت على ذلك. فقد رأيت صبيًّا في الصف السادس يتجه نحوي، وشعرت بالخجل لأنني أرتدي الحذاء الأبيض والأسود الغبي في ذلك اليوم بالذات. طأطأت رأسي وحاولت المرور بجواره دون أن يلحظني، لكنه وقف أمامي مباشرة.

وسألني: «ما اسمك؟»

فأجبته دون أن أرفع رأسي: «سيندي.»

فقال لي: «يعجبني حذاؤك»، ثم أكمل طريقه لآخر الرواق.

أسرعت إلى الحمام وعدت إلى القبو ثانية، وهكذا تلاشى قلقي بشأن عدد الخطوات الواجب قطعها للوصول إلى الحمام، وقلقي بشأن حذائي. لكنني ظللت أطأطئ رأسي كلما قابلت صبيًّا في الصف السادس.

«السيدة المعلمة».

اكتشافات أخرى

بالطبع لم تحلَّ المعلمة الجديدة كل مشاكلي. إذ كان عليَّ مواجهة مشكلة قلة ثقتي بنفسي، المشكلة التي ترجعها أمي إلى ولادة أختي الصغيرة ليزا وأنا أبلغ من العمر أربعة عشر شهرًا فقط. حكت لي أمي كيف اصطحبَتني إلى متجر البقالة ذات مرة، عندما بدأت أتعلم السير، وكيف كنت منزعجةً من إبداء المتسوقين إعجابهم بالوليدة الجديدة وعدم انتباههم لي تمامًا. ربما شعرت بالحزن لتحوُّل اهتمام الجميع عني فجأة، لكنني أحببت أختي منذ ولادتها.

أسعدني أنني غير مضطرة للذهاب مع أختي إلى الصف الأول. **كانت المدرسة أمرًا يخصني وحدي ذلك العام، وكل ما حدث فيها حدث في عالمي السحري الخاص.**

حظيت بمعلمة محبة حولت الفصل الكئيب إلى مكان جميل، وبدأت أحلامي عن المدرسة تتحقق أخيرًا.

ذات مرة أعدَّت لنا السيدة وورنكي مفاجأة وقت تناول الأيس كريم. اعتدنا كل يوم أن ندفع لها نقود الأيس كريم، وأن نخبرها بالنوع الذي نفضل مثل شطيرة الأيس كريم، أو عصا أيس كريم الشوكولاتة، أو أكواب أيس كريم الفانيليا. ذات عصر بعد أن دفعنا النقود وحددنا طلباتنا، قالت لنا السيدة وورنكي: «أحمل لكم مفاجأة. لم أحضر لكم أنواع الأيس كريم المعتادة اليوم.» كانت قد أحضرت لنا بوبسيكل الفانيليا المغطى بطبقة سميكة من الشوكولاتة. قد لا يبدو الأمر مذهلًا، لكنه في نظر فصل مليء بأطفال الصف الأول كان رائعًا كصباح يوم الكريسماس. أخذنا نصيح ونقضم طبقة الشوكولاتة السميكة، ونتحدث عن مذاق كل قضمة. ظللت لأعوام أظن أنها خططت للأمر برمته. واعتقدت أن هذا النوع من الأيس كريم كان متاحًا طوال العام، لكنها أخفته عنا لتفاجئنا به فيما بعد. بالطبع، أغلب الظن أن هذا النوع لم يظهر سوى ذلك اليوم. المهم أن مغامرة الأيس كريم هذه منحتنا شعورًا بأننا مميزون ومحبوبون. وكان هذا هو شعور فصلنا طوال العام.

عندما كانت تزحف الديدان على حيطان غرفة القبو الرطبة، كانت تمسكها السيدة المعلمة وتحدثنا عنها، كانت تستغل الموقف لتعطينا درسًا في العلوم، كلما تسنح لها الفرصة. أتذكر أننا اعتدنا التمدد على فُرش زرقاء وحمراء كل يوم بعد الغداء. كنت قلقةً بعض الشيء من فكرة التمدُّد على أرضية القبو، وتخيَّلت كل أنواع الكائنات الحية وهي تزحف عليَّ وأنا مُمدَّدة. لكن السيدة وورنكي كانت تأخذنا كل يوم إلى الفرش، وتدور حولنا وتربت برقة على كتف كل واحد منا، كل واحد على حدة. وهذا جعلنا جميعًا، ونحن أطفال لا نزال في السادسة، ننام على تلك الأرض الخشبية آمنين مطمئنين؛ لوجود المعلمة الجديدة الحانية.

كنت جيدة في مادة العلوم، لكن عشقي كان القراءة. فقد أحببت الكلمات منذ سنٍّ صغيرة. أذهلتني قدرتي على النظر إلى أحد الكتب، وقراءة المكتوب فيه. لذا فور أن استطعت أن أكتب وأخط الكلمات بقلم رصاص سميك على سطور تبعد بوصة، الواحد عن الآخر، قررت أن أكتب أولى قصائدي. وكانت بعنوان «النجوم».

النجوم، النجوم
سأبحث عنها.
إنها تضيء بالليل

السيدة وورنكي تلعب معنا في ملعب مدرسة براجتاون.

حتى يأتي الصباح.
ولا أحد يدري
أين تمضي.

سأتخصص في دراسة اللغة الإنجليزية، وأتعلم استخدام الأزمنة المختلفة، لكنني في الصف الأول أردت أن تكون قصيدتي مقفاة بشكل ما ليس إلا. أمسكت تحفتي الفنية على استحياء واتجهت إلى مكتب السيدة وورنكي، ونظرت إلى أرضية القبو الخشبية المخدوشة وهي تقرؤها. عندما أنهتها أمسكتني واحتضنتني، وقالت لي: «إنها جميلة. أريدك أن تكتبي الكثير والكثير مثلها.»

سمعت كلامها. وظللت أكتب قصائد قصيرة. وفي الصف الثاني كتبت قصيدة غنائية قصيرة عن الفصول الأربعة. وحينئذٍ حملتني ساقاي النحيفتان إلى غرفة السيدة وورنكي لأعرضها عليها. ومع أنها كان لديها فصلٌ آخر في ذلك الوقت، غرفة مليئة بالأطفال عليها أن تُدرس لهم، فقد كانت تعاملني كما لو كنت الطفلة الوحيدة في الغرفة، كلما ذهبت إليها. أتمنى أن أرد بعض جميلها بالقصيدة التي كتبتها عن المعلمين:

المعلمون رائعون في رأيي
لكنه رأي شخصي.
قد لا يعرف أحد غيري
مدى روعة المعلمين.

بعد عدة أعوام، نشرَت صحيفة المدرسة «براجتاون بيوجل» قصيدتَين من تأليفي. وهو ما أسعدني وأسعد أمي والسيدة وورنكي. غير أن سعادتي خالطها الحزن لأن السيدة وورنكي اعتزمت الرحيل. وقبل أن ترحل أعطَتني هدية. كانت بالطبع كتاب قصائد وكان بعنوان «اقرأ لي وسأقرأ لك» للمؤلف جون تشاردي. وكتبت عليه: «عسى أن تفكر إحدانا في الأخرى متى تُليت إحدى القصائد. باربرا وورنكي، يونيو ١٩٦٧.»

السيدة باريش

ما الذي دفع فتاة خجولةً في العاشرة من عمرها أن تقرِّر، وهي في هذه السن الصغيرة، أن تصبح معلمة؟ بالطبع لا شيء سوى التأثير الهائل لمعلمة عظيمة؛ فهذا وحده يكفي أن تتخذ الصغيرة هذا القرار المصيري.

غيرت حياتي معلمتي في الصف الخامس بمدرسة وايلي الابتدائية في سولزبيري بولاية كارولينا الشمالية. إنها السيدة أولي ماي باريش، وهي سيدة صهباء ضئيلة الجسم فرضت على الجميع احترامها. أدركت قرب انتهاء صفي الخامس أنني أريد أن أكون معلمة مثل السيدة باريش.

بالطبع لم تكن المدرسة الابتدائية وقتها كما هي الآن. بل كان جميع الطلاب يراعون قواعد السلوك، فيجلسون في صفوف، ويتحدثون فقط عندما يُسمح لهم بذلك. كنا نسير جميعًا في الأروقة في صفوف مستقيمة. وكانت ترتدي جميع الفتيات الفساتين، وكان يحمل جميع الطلاب غداءهم في صناديق معدنية. لكن السيدة باريش سمحت لنا أن نكون متفردين في فصلها. فحدثتنا عن زوجها هاري كأنه صديقنا. ودافعت عنا، عندما تجنَّت معلمة التربية الرياضية على فصلنا. وغضبت عندما أجبرتنا المدرسة على الحضور يوم السبت؛ لتعويض يوم الإجازة الذي سقطت فيه الثلوج بقوة، وردًّا على ذلك جعلت اليوم ممتعًا. كانت السيدة باريش من المعلمات اللاتي كن يتحدَّثْن وينصتْنَ إلى طلابهن.

ترجع أهم ذكرياتي عن فصل السيدة باريش إلى يوم دراستنا للولايات المتحدة. إذ قسمتنا إلى مجموعات — وهذا لم يكن شائعًا في تلك الأيام — وخصت كل مجموعة بجزء من البلاد لدراسته. وأصبح واجبًا علينا أن نعد لوحة بيانات خاصة بالجزء الذي سندرسه، وأن نشرح لزملائنا في الفصل ما تعلمناه. لقد أتاحت لنا الفرصة أن نكون معلمين! لم يسبق لأحد في مدرستي الابتدائية أن أتاح لي الفرصة أن أعد درسًا لفصلي. بالفعل سبقت السيدة باريش عصرها.

احتوتني السيدة باريش — كنت طفلة خجولةً جدًّا وأصغر من أقراني — وبثَّت فيَّ القوة. ومع أنني خشيت بشدة القراءة على الملأ، فإنها اعتبرتها فرصةً لتشجعني على الوقوف أمام بقية الطلاب، وشرح ما تعلمته لهم.

لم أنسَ السيدة باريش وأنا أسعى لأن أصبح معلمة. وأثناء دراستي الجامعية ذهبت لزيارتها في الفصل لأتعلم من وسائلها الساحرة. وحرصت على البقاء على اتصال بها بعدما بدأت العمل في التدريس.

أما أهم موقف جمعني بالسيدة باريش فقد وقع منذ عدة أعوام. إذ كان بعض طلابي يعرضون على عائلاتهم وأصدقائهم مشاريعهم الخاصة بأحدث التقنيات، باستخدام أجهزة كمبيوتر أبل الجديدة الخاصة بنا. كان العرض مسائيًّا وقد امتلأت الغرفة عن آخرها. وقفت لأقدم طلابي وأعطي نبذة مختصرة عما فعلناه، فرأيت وجهًا مألوفًا جدًّا يبتسم لي. لقد كانت السيدة باريش تجلس بين الحضور، فخورة بشدة بطالبتها الصغيرة الخجولة التي درَّست لها منذ أعوام عديدة في الصف الخامس.

انتقلت السيدة باريش إلى العالم الآخر الآن، وأعتقد أنها سعيدة بمشوارها المهني. أما أنا فأدرِّس للعام الثالث والثلاثين في ولاية كارولينا الشمالية. وأمنيتي الوحيدة في الحياة أن يقول أحد طلابي ذات يوم إنني تركت أثرًا باقيًا في حياته.

جانيس ريبر، المعلمة الموهوبة مهنيًّا وفكريًّا، مدرسة هيرلي الابتدائية في سولزبيري بولاية كارولينا الشمالية، الحاصلة على لقب معلم العام في المنطقة الشمالية الغربية في ولاية كارولينا الشمالية للعامَين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩

سنوات التغيير

إذن، بعد مرور أربع سنوات على نقلي للفصل الجديد، عادت السيدة وورنكي وزوجها الذي كان قد تخرَّج وقتها في جامعة ديوك إلى بلدتهما بافالو في نيويورك. بدت بافالو بعيدة جدًّا في نظر طفلة صغيرة، لكن لم يكن هناك بدٌّ من ذلك.

حينئذٍ كنت في العاشرة من عمري. لكنني كنت على مشارف المدرسة الإعدادية، حيث ستشتتني ملهيات سنوات المراهقة الصاخبة. هذا بالإضافة إلى الملهيات الأخرى التي ظهرت في الجنوب في أواخر الستينيات. ظلت براجتاون مدرسة ابتدائية للطلاب البيض، حتى جرى إنهاء التمييز العنصري عام ١٩٦٩. ضم الحي الذي أسكن فيه مزيجًا من البيض والسود. لهذا اعتدت طوال سنوات دراستي الابتدائية أن أستقل الحافلة المتجهة إلى

مدرسة براجتاون، في حين كان يستقل جيراني السود الحافلة المتجهة إلى مدرسة ليكفيو الابتدائية.

أما العام التالي — وأنا في الصف السابع — فقد ذهبت إلى المدرسة لأول مرة مع طلاب سود. في أول يوم لي في العام الدراسي اقتربت مني ثلاث فتيات وأنا في الحمام، وسألنني عن شعوري بوصفي فتاة بيضاء. وذات يوم وقف صبي أبيض في مقدمة حافلتي قبل أن ينزل. وجذب أنظار الجميع إليه بإنشاده أبياتًا قليلة من أغنية «ديكسي»، ثم قفز من الباب. فهب عشرة صبية سود من مقاعدهم حولي ولاحقوه في الشارع.

بالرغم من خطورة ما حدث، أعتقد أن أكثر ما شغلني ضرورة توفير حراسة من رجال الشرطة في رحلتَي الذهاب إلى المدرسة والعودة منها. فقد اصطفَّ الرجال البيض المحتجون على إنهاء التمييز العنصري في الشوارع، بطول الطريق المؤدي من حيي إلى مدرستي، ورشقوا الحافلات بالحجارة. في بعض الأوقات كانت أحداث تلك الأيام العصيبة تطغى على ذكرياتي السعيدة عن المرحلة الابتدائية.

لكنني كنت أشعر بالسعادة الغامرة، كلما عدت إلى المنزل من المدرسة لأجد السيدة وورنكي قد أرسلت لي خطابًا. وصلني آخر خطاب منها عام ١٩٧٠ وأنا في الثالثة عشرة من عمري. حينئذٍ كنت أضع تقويمًا للأسنان واخترت هجاءً مختلفًا لاسمي (بأن جعلته Cindi بدلًا من Cindy). إذ كان هناك ثلاث فتيات بالهجاء القديم للاسم في فصلي، وأردت أن أكون متفردة ومحبوبة؛ محبوبة بالقدر الكافي لأتلقى دعوة لحضور حفل كوجر كلاب، وهو حفل راقص يقام في الكريسماس، ويحضره طلاب مدرستي الرياضيون وصديقاتهم. لم أتلقَّ دعوة قط لحضور ذلك الحفل.

انضممت لفريق المشجعات، وتصرفت بطريقة جديدة لتلائم وضعي الجديد، وتساعدني على إخفاء شعوري الدائم بقلة ثقتي في نفسي. ظلت مشكلتي الكبرى هي مظهري، لكن ساهمت عوامل أخرى أيضًا في شعوري بعدم الثقة. فطالما كنت أدرك أنني أعيش في بيئة متواضعة، وكانت عائلتي لديها بالكاد ما يكفي للوفاء باحتياجاتها الضرورية مقارنة بالأوساط الأكثر ثراءً. لم نكن معدمين على أي حال، لكننا افتقدنا بعض الكماليات، مثل: الرحلات العائلية والتلفزيون الملون والسيارة الفارهة. لم تحظَ جدتي بحمام داخل منزلها حتى كبرتُ وتزوجت. (مع أنني أُومِن بشدة أن استخدام حمام جدتي الذي كان خارج المنزل أدَّى إلى تقوية شخصيتي.)

تحسست طريقي طوال سنوات مراهقتي كغيري من الفتيات. ومع قلة تفكيري تدريجيًّا في السيدة وورنكي، فقد ظلَّت جزءًا مني. تخلصت من كتب مرحلة الطفولة كلها

واحتفظت بالكتاب الذي أهدتني إياه، وكنت أتصفحه من وقتٍ لآخر. إلا أنني لم أفكر جديًّا في البحث عنها إلا بعد مرور عدة أعوام.

أنهيت دراستي الثانوية ودخلت الجامعة، وكلي شغف للتعلم الذي زرعته فيَّ السيدة وورنكي قبل أعوام. أتذكر أنني فكرت في وقت ما في عامي الأول في الجامعة، تقريبًا في الوقت الذي تخصصت فيه في التدريس، في إبلاغ السيدة وورنكي أنني قررت العمل معلمة. لا أظنني أدركت حينئذٍ مدى تأثيرها في قراري هذا، ولم يكن بمقدوري أن أعلم وقتها أن طريقتها في التدريس ستؤثر على عملي. لكنني شعرت في وقت ما برغبة شديدة في إخبارها أنني سأسير على دربها. مع أن هذا الأمر بدا مستحيلًا في ذلك الوقت. فقد فقدَت إحدانا الاتصال بالأخرى، ولم يظهر الإنترنت إلا بعد عشرين عامًا أخرى. لذا اكتفيت بالتفكير بإعجاب في معلمتي التي درست لي في القبو بالمدرسة الابتدائية، دون أدنى أمل في رؤيتها ثانية يومًا ما.

كما أصبحت الكتابة ونظم القصائد اللذان أحببتهما بفضل السيدة وورنكي من الثوابت في حياتي، شكَّل حبها وتشجيعها اللامتناهيان لي — دون اعتبار لمظهري أو افتقادي للمكانة الاجتماعية — شخصيتي كمعلمة. لزمني الأمر عشرين عامًا من التدريس حتى أدرك تمامًا تأثيرها عليَّ. وفور أن أدركته تمنيت أن أخبرها يومًا بذلك، إن قُدر لي أن أعثر عليها. لكن العثور عليها كان أشبه بما كتبته في قصيدتي الأولى: البحث عن النجوم.

الفصل الثاني

تحسس الطريق

«شعرت أنني ضائعة وغير مستعدة.»

باربرا وورنكي، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٨

لم يخطر ببالي قط أثناء نشأتي أنني سأصبح يومًا معلمة. وفي الوقت الذي صفَّت فيه أختي عرائسها أمام سبورة تخيلية لتلعب دور السيدة كيلباتريك، معلمتها المحبوبة في الصف الأول، كنت أقضي ساعات خارج المنزل أقفز وأدور وألعب. لم أطمح أن أكون معلمة. بل تمنيت أن أكون مشجعة لفريق دالاس كاوبويز لكرة القدم الأمريكية.

أذكر أول يوم شاهدت فيه مشجعات مدرستنا وأنا في المدرسة الإعدادية. راقبتهن وهن يدخلْنَ برشاقة صالة الألعاب الرياضية، مرتديات تنانير مخططة بالبرتقالي والأبيض وممسكات بكرات تشجيع برتقالية فاتحة، ويعبرْنَ أمام المقاعد الخشبية، لحظتها أدركت أنني أريد أن أكون واحدة من هؤلاء الفتيات المحبوبات. نحيت جانبًا شعوري بعدم الثقة، وبذلت جهدًا كبيرًا في اختبارات الأداء في الصفَّين السابع والثامن، لكنني لم أوفَّق في المرتَين. وشاهدت الاختيار يقع على فتيات أجمل مني، تصادف انتساب أغلبهن إلى فصل المدرب، وكان من بينهن شيلا.

وفي طريقي للمنزل — بعد إعلان أسماء المشاركات في الفرق — بكيت بحسرة لأنني لم أُقبل. حاولت أمي تهدئتي، وأخبرتني أنني إذا بذلت أقصى طاقتي، فسأحقِّق أي شيء أريده. وشجعتني ألَّا أتخلَّى عن حلمي. فبدأت العمل من جديد.

كان أبي قد شيد غرفة لأدواته في الساحة الخلفية، بها نافذة كبيرة خلفية تتكون من عشرين لوحًا زجاجيًّا محاطة بطلاء أبيض متقشر. تدربت هناك بلا كلل مستخدمة

النافذة مرآة لي. وقضيت كل ليالِيَّ بالخارج أقفز أمام تلك الغرفة حتى يحل الظلام التام. وادخرت كل بنس في صندوق حذاء كتبت عليه «نقود دروس الرقص»، وتمكنت أخيرًا من إقناع أمي بادخار مبلغ شهري قدره ١٢ دولارًا، لدَفْع تكاليف دروس الجمباز. وعندما حان وقت اختبارات الأداء في المدرسة الثانوية، وقع الاختيار عليَّ أخيرًا للانضمام إلى الفريق. بكيت تلك المرة أيضًا لكن من السعادة، وظللت أضحك وأبكي في طريق عودتي إلى المنزل. وبحلول عامي الأخير في المدرسة الثانوية، كنت قد أصبحت قائدة فريق مشجعات المدرسة، وحصلت على المركز الثاني كأفضل مشجعة بين ٣٥٠ مشجعةً شاركَت في مخيم مشجعات الساحل الشرقي. زادت ثقتي بنفسي مع خوضي هذه التجارب. ومع أنني كنت لا أزال أصارع في صمت بعض جوانب مشكلة عدم تقديري لذاتي التي عانيت منها في المدرسة الابتدائية، فإنني سرعان ما كنت أبدو سعيدة ومبتسمة فور ارتدائي تنورتي المخططة، وحذاء التشجيع الخاص بي؛ الحذاء الأبيض والأسود!

لكنني أدركت أن الأحلام لا تتحقق دائمًا، عندما خضعت لاختبار الانضمام لفريق المشجعات في كليتي. كنت في السنة الأولى واحدة من مائتي فتاة شابة دخلت قاعة الألعاب الرياضية في حرم الكلية للخضوع للاختبار. وبالرغم من قلقي تمكنت من التأهل لتصفيات المائة، ثم الخمسين، ثم الاثنتَي عشرة. وكان من المقرر اختيار ست مشجعات فقط.

وليلة إعلان النتيجة، علمتُ أنني حصلت على المرتبة السابعة. ومن المفارقات القاسية لفتاة قضت حياتها كلها تسمع كم هي نحيفة للغاية، أن تخبرها لجنة التحكيم أن سبب رفضها أن وزنها زائد! كيف يعقل ذلك؟ اتضح أن التشجيع في المدرسة الثانوية يختلف عنه في الجامعة. إذ تضمنت حركات التشجيع في الجامعة أن يرفعني شباب — بعضهم لا يزيد وزنه عن وزني كثيرًا. ولم يكن وزني خفيفًا بالقدر المطلوب.

حطمني هذا. وشعرت لدى عودتي لسكني أنني أسير بخطًى متثاقلة على الرصيف. فقد قضيت كل سنوات دراستي الثانوية في فريق التشجيع، وأغلب وقت فراغي في التمرين على التشجيع. ماذا سأفعل الآن؟ والسؤال الأهم: ماذا سأكون الآن؟

السيدة كلارك

فور أن رأيت مادة الخطابة مذكورة في جدولي الدراسي، أخبرت أمي أنني سأترك المدرسة الثانوية، مع أن كلتينا تعلم أنه تهديد أجوف. فلطالما حلمت أن أكون معلمة، منذ أن كنت في الصف الأول ألعب لعبة المدرِّسة مع أخي الصغير، ومحوت كل محتويات أوراق العمل المدرسية الخاصة بي. لهذا عدت إلى

المدرسة في اليوم التالي والخوف يملؤني لأشرع في مهمة تعلم الخطابة. في البداية أرعبتني المعلمة التي دخلت الفصل، لكنها أصبحت في النهاية واحدة من أهم الذين تركوا أثرًا في حياتي؛ إنها السيدة كلارك. اعتادت التحدث بصوت مرتفع كله حماس وقد كانت تتوقَّع منا الكثير جدًّا، وأجبرت جميع طلابها على احترامها وخشيتها. في تلك المرحلة من حياتي اعتقدت بشدة أن السيدة كلارك تجسيد للشر. كان أول واجب منزلي في مادة الخطابة كتابة بحث من ثمان صفحات، وإعداد خطبة تثقيفية مدتها من ثمان إلى عشر دقائق. ومن أهم الشروط التي لن أنساها أبدًا إلقاء الخطبة من الذاكرة مع إمكانية استخدام بطاقة تذكير واحدة فقط. بطاقة واحدة! فاضطررت لكتابة بحثي بأكمله في تلك البطاقة، وقد حاولت نحو خمس أو ست محاولات قبل أن أنجح في هذا. وكتبته بخطٍّ صغير في جميع الاتجاهات، بحيث إذا أجبرَتْني تلك المرأة على الحديث لن أنسى ما عليَّ قوله. عندما وقفت لأخطب، ألقيت بحثي المكون من ثمان صفحات في ثلاث دقائق كاملة، ولدهشتي حافظت على تماسكي ونجحت. لقد نجحت في إلقاء الخطبة واجتياز المادة، بمساعدة بعض الحيل الذكية التي علمتها لي السيدة كلارك. إنها لم تدعني أستسلم لخجلي، بل ظلت تتيح لي الفرص لأكتشف موهبة التمثيل بداخلي.

أليس كينج، معلمة اللغة الإنجليزية والخطابة للصفوف من العاشر وحتى الثاني عشر، بمدرسة مقاطعة كامبيل الثانوية بمدينة جيليت في وايومنج، الحاصلة على لقب معلم العام بولاية وايومنج لعام ٢٠٠٩

تغيير حلمي

في تلك الليلة نظرت إلى حياتي، وفكرت في البدائل المتاحة أمامي وفيما أهتم به. وأدركت أنني مهتمة بأمر واحد فقط بنفس قدر اهتمامي بالتشجيع؛ إنه اللغة الإنجليزية. لطالما أحببت الكلمات والعبارات الساحرة بكل أشكالها؛ الشعر والمقال والقصص القصيرة والمسرحيات. اتضح لي أن اهتمامي بالأدب لازمني طوال حياتي وسنوات دراستي، وبدأ في فصل السيدة وورنكي في الصف الأول وقصائد الشعر التي تشاركنا إياها. هذا ما أردت فعله، أن أشارك هذا الحب، أن أقتبس عبارات شكسبير أمام طلاب مبهورين باستخدامات اللغة. حينئذٍ عزمت على اتباع خطوات معلمتي المفضلة، والتأثير في حياة آخرين كما أثَّرت السيدة وورنكي في حياتي.

حتى تلك اللحظة لم أكن قد فكرت في تخصصي في الجامعة؛ إذ انتقلت للسكن في سكن الطالبات في الخريف وأنا أحلم بالتشجيع في مباريات كرة القدم الأمريكية. ولكن على حين غرة فاجأني سؤال: كيف لم أفكر في تخصصي من قبل؟ بالطبع سأصبح

معلمة! وبدأت أتخيل شكل فصلي، ورأيتني أقف فيه أحبِّب الأطفال في المدرسة كما حدث معي في الصف الأول. سألعب مع أطفال آخرين الدور الذي لعبته معي السيدة وورنكي. وأسعدتني تلك الفكرة كثيرًا.

قضيت السنوات الأربع التالية أهيئ نفسي لتغيير العالم، وأتدرَّب على إعداد الدروس، وأتعلم النظريات التربوية. ومع أنني شعرت في بعض الأوقات بالحزن، عندما كنت أشاهد مباريات ألعاب الكرة في الجامعة وأرى المشجعات، فإنني تيقَّنت أن لحياتي هدفًا أسمى. يرى البعض أن التدريس يختار المعلمات وليس العكس. وقد شعرت أن التدريس اختارني ذلك العام، وحينئذٍ وجدت الصفاء النفسي. كان مستقبلي مخططًا مسبقًا، وأدركت لأول مرة الدور الذي سأقوم به.

في سنتي الجامعية الأخيرة، كُلِّفت بمهمة التدريس لبعض الطلاب في مدرستي الإعدادية. فتزاحمت الذكريات في رأسي؛ ذكريات حفل كوجر كلاب ورفضي في اختبارات فرق التشجيع، ومسألة إنهاء التمييز العنصري. لكن رغبتي في البدء سريعًا كانت كبيرة، وشعرت بالسعادة عندما علمت أن المعلمة التي ستشرف عليَّ ستكون السيدة بيتي ويتفيلد، إحدى أقدر المعلمات في المدرسة. كانت في فصل مدرسة الأحد الذي ارتادته أمي، وهي شخصية عرفتها طوال حياتي تقريبًا.

أمسكت السيدة ويتفيلد بزمام الأمور في فصلها؛ لذا وجدت نفسي في بيئة مثالية. حتى عندما غادرَت الفصل وتركَت الطلاب معي وحدي، تصرَّفوا جميعًا بأدب جم. إذ علموا أن السيدة ويتفيلد ما زالت في المبنى! درَّست لطلاب الصف التاسع مسرحية «روميو وجولييت»، ومارسنا نشاط «كلمة اليوم لشكسبير». أيقنت حينئذٍ أنني اخترت مهنة رائعة؛ فلم تكن سهلة فحسب بل أتاحت لي فرصة الحديث عن المؤلفين والكتب طوال اليوم (وأمكنني تدريب المشجعات أيضًا). لقد لاءمني التدريس تمامًا.

العودة إلى أرض الواقع

على الأقل بدا التدريس للطلاب رائعًا. لقد بدا رائعًا للغاية في واقع الأمر، حتى إنني تخرَّجت في الجامعة وبداخلي شعور زائف بالثقة. أذكر كيف دخلت بجرأة المكتب المركزي لإحدى المناطق التعليمية ذلك العام في يونيو، وطلبت مقابلة مسئول شئون العاملين. فأجابتني موظفة الاستقبال: «املئي هذا الطلب ثم أرسليه بالبريد.» فأخذت الطلب وخرجت إلى ساحة السيارات حتى وصلت إلى سيارتي، وفجأة وقفت في مكاني.

وصرخت دون أن أوجه كلامي لأحدٍ بالتحديد: «لا! لن أغادر دون الحصول على وظيفة.» وعدت إلى موظفة الاستقبال نفسها داخل المبنى، وطلبت منها منحي قائمة بأسماء مديري المدارس الثانوية. رسمت الموظفة على وجهها ابتسامة متكلفة، وأخبرتني أنني لن أتمكن من الوصول لأيٍّ منهم؛ لأنهم جميعًا مجتمعون في غرفة اجتماعات خلفي. شكرتها واتجهت نحو الباب المؤدي لتلك الغرفة، وانتظرت. انفتح الباب بعد مرور ساعة، فقفزت في وجه أول شخص أراه.

قلت لذلك المدير المتفاجئ وكل من حوله ممن كان بإمكانهم سماعي: «أنا أبحث عن وظيفة!» وبحلول أغسطس، كنت أعمل تحت إدارة هذا المدير.

اكتشفت أن العثور على وظيفة كان أسهل ما في العملية. فسرعان ما بدأت تتلاشى ثقتي بنفسي المكتسبة حديثًا، وسألت نفسي أين كان عقلي عندما عدت للمبنى مرة أخرى ذلك اليوم. أذكر أول لقاء لي مع زملائي المعلمين. إذ نظرتُ إلى عدد منهم ونحن نركب حافلة المدرسة لحضور مؤتمر على مستوى المنطقة التعليمية، وتساءلت هل هناك قاسم مشترك بيني وبين هؤلاء التربويين المخضرمين. شاء الحظ أن يكون أول مقعد متاح بجوار معلمة لغة إنجليزية مثلي. وعندما جلست وبدأت أعرِّفها بنفسي، نظرت إليَّ وسألتني بصوتٍ عميقٍ رنان: «في أيِّ مكانٍ يعمل زوجك؟» أظن أنني جلست فاغرة فمي لمدة دقيقة كاملة. اعتدت على سماع اللغة العامية والأخطاء اللغوية التي كانت شائعة في حيي. لهذا شعرت فجأة بأنني في مكان غريب، وتأكدت أنني غير مؤهلة للتدريس لطلاب يتوقعون مني الحديث بمثل هذه اللغة الرصينة.

بعد انتهاء المؤتمر والعودة إلى المدرسة، لم أصدق أنني استغرقت خمسة أيام عمل كاملة للانتهاء من عمل بسيط، هو إعداد لوحات إعلان المدرسة لأول يوم في الدراسة. في ذلك الوقت لم تكن هناك أحرف أو حواف جاهزة؛ لذا جلست وحدي أقصُّ الأحرف خمسة أيام طويلة لا تنتهي. فكرت أن أقسم إحدى اللوحات إلى قسمَين؛ قسم «الأدب» وقسم «النحو». لكن المشكلة أنني كتبت «الأدب» و«النوح». في اليوم الخامس مرت معلمة لم أرَها من قبل بجوار باب غرفتي، وقالت لي: «أخطأتِ الهجاء»، ثم أكملت طريقها إلى آخر الرواق. أصبت بالانهيار. فأنا معلمة لغة إنجليزية بالمدرسة الثانوية، وها أنا أخطئ في هجاء كلمة. الغريب في الأمر أنني لا أجيد شيئًا في حياتي مثلما أجيد الهجاء. أعترف أن علاقتي بالحساب انتهت بانتهاء مقرر الجبر في الصف العاشر عندما حصلت على ٣ درجات في الاختبار. لكن لطالما كان الهجاء نقطة قوة لديَّ. ربما أصابني الإرهاق بسبب

القص الكثير، لكنني اعتبرت ذلك الخطأ نذير سوء. وخشيت أن أكرر نفس الخطأ وأنا معلمة.

صفعة عنيفة

مع وصول الطلاب للمدرسة، تيقَّنت حقًّا أنني غير مستعدة للتدريس. فعندما أخذت أنادي الأسماء في اليوم الأول، وقف طالب في سنته الأخيرة وذراعاه ممدودتان، ثم نظر إلى زملائه في الفصل وقال: «من الواضح أنها لا تعرف من أكون.»

فقلت بثقة في محاولة لإثبات سلطتي: «لا يهم من تكون. اجلس!» ثم بدأت الأمور تتدهور بسرعة منذ تلك اللحظة.

لقد عُقدت صفقات مخدرات في الفصل في حضوري دون أن أعلم. وذات مرة رأيت مبالغ مالية ضخمة يُجرى تبادلها في الفصل، وعندما سألت جاءتني الإجابة: «نحن نجمع النقود من أجل رحلة ميدانية». بعدها استُدعيت إلى مكتب مدير المدرسة، وعلمت أن المدرسة فصلت هؤلاء الطلاب لأنهم يتاجرون في المخدرات داخل المدرسة.

وسألني المدير: «ألم تلاحظي شيئًا؟»

فأجبته وأنا مطأطئة الرأس: «نعم. رأيتهم فقط وهم يجمعون النقود من أجل رحلة ميدانية.»

كان السؤال التالي الذي سأله: «لماذا يجمع الطلاب النقود وليس أحد المعلمين؟»، وبالطبع لم أجد ما أقوله.

لم تكن هذه المفاجأة الوحيدة. إذ تعرضت في تلك السنة للشتم لأول مرة، وأدركت للمرة الأولى أن بعض الطلاب يتعمدون عدم إتمام واجباتهم ليرسبوا. وكم أفزعني ذلك!

ومع أنني حاولت تحفيزهم على النجاح، فقد اكتشفت أن طلابي نوعان: نوع يحب المجادلة والمواجهة، ونوع يحب «مصادقة» المعلمين اليافعين الجدد. أتذكر سماعي اعتراضات تقريبًا على كل مهمة كلفتهم بها: «هذا صعب جدًّا» أو «هذا سهل جدًّا؛ فقد فعلناه العام الماضي». في هذه الأثناء كنت أتلقى دعوات باستمرار لكل حفلات المدرسة الثانوية وحتى حفل التخرج. وبالرغم من أهمية هذه الوظيفة بالنسبة لي، فلم يأخذني أحد على محمل الجد.

لأكون صريحة أثق أنني لم أتصرف كمعلمة تريد أن تُؤخذ على محمل الجد. فقد شعرت بالتأكيد وأنا أجلس في قاعة المعلمات — وأبلغ اثنين وعشرين عامًا — أنني لا أنتمي

إلى ذلك المكان. فقد بدا لي أن العديد من زميلاتي كن بعمر أمي، وكان يدور حديثهن بصورة رئيسية حول وصفات الطعام والحفلات الدعائية لأوعية حفظ الطعام. في الوقت نفسه، كنت أسمع مصادفةً زميلاتي الأكبر سنًّا يتحدَّثْن عن الحفلات «الحقيقية»، وأنا خريجة جديدة لا أعلم شيئًا. لهذا لا عجب أنني وجدت صعوبة في أن أبدو قائدةً تربوية. فلم أشعر أنني قائدة من هذا النوع بأي حال.

فيما يتعلق بالتدريس، فقد أخفقت تمامًا. والوسائل التي استخدمتها في المدرسة الإعدادية لم تكن مناسبة للتدريس في المدرسة الثانوية. آنذاك لم يكن هناك مرشد للمعلمين الجدد؛ لذا توجهت إلى غرفة زميلة لأطلب منها المساعدة. فاعترفت لها قائلة: «لا أعلم ماذا أدرِّس.» فأعطَتْني الكتاب المدرسي وأشارت إلى بعض الصفحات، ثم أغلقت باب غرفتها.

أحد الأيام كنت أجلس على مكتبي في الفصل أقرأ بصوت مرتفع للطلاب. مرت معلمة أخرى أمام الباب، وأطلَّت برأسها وقالت: «ستتعلمين ألَّا تفعلي ذلك»، ثم غادرت مسرعة. سألت نفسي: ألَّا أفعل ماذا؟ ألَّا أقرأ؟ كانت تلك النصيحة الوحيدة التي تلقيتها من إحدى زميلاتي ذلك العام.

كلما تذكرت الآن تلك الممارسات التعليمية اعتصرني الندم. كانت هناك تدريبات نحو وواجبات قراءة وأوراق عمل يومية، وكلها أمور غير مفيدة — قليلة الفائدة — لطلابي. كان لديَّ فصلان من الطلاب الموهوبين وفق تصنيف المدرسة، وأذكر أنني عندما تصفحت أبحاثهم لم أكن أعلم كيف أمنحهم الدرجات. فالمحتوى أصعب من أن أفهمه! كتب أحد الطلاب بحثه عن الفيزياء النووية، ولم يكن بمقدوري سوى البحث عن أخطاء في علامات الترقيم. كثيرًا ما شعرت بضرورة أن أقدم لطلابي «المزيد»، لكنني لم أعرف من أين أبدأ.

ومع ذلك كنت أقضي وقتًا طويلًا في عملي. إذ درَّست خمسة مستويات من اللغة الإنجليزية، ومادة الدراما. أضف إلى ذلك أنني كنت مدربة فريق التشجيع، وراعية نادي بيب، ومدربة نادي الدراما. وأخرجت حفل الربيع لاكتشاف المواهب، وساعدت في إتمام حفل الربيع الموسيقي. في أغلب الأيام كنت أصل إلى المدرسة الساعة السابعة والنصف صباحًا، ولم أكن أغادر إلا ليلًا بعد انتهاء كل التدريبات والمباريات. وبانتهاء العام الدراسي في يونيو ١٩٨٠، شعرت بالإنهاك الشديد.

بعدها بوقت قصير تلقيت خطابًا يخطرني بوقف التعيينات في مدرستي، ونظرًا لأنني آخر شخص عُين فقد نُقلت إلى مدرسة في الجهة الأخرى من المدينة. لم أحتمل فكرة قضاء عام أول مرة أخرى في مدرسة جديدة مع مدرسين وإدارة وطلاب جدد.

صورتي في الكتاب السنوي وأنا مدربة فريق التشجيع عام ١٩٧٩، وهو عامي الأول في التدريس.

فاستقلت من وظيفتي.

ولم تطأ قدمي فصلًا دراسيًّا لسبع سنوات. خلال تلك المدة انتقلت إلى مدينة أخرى، وعملت في استوديو للرقص (استمرارًا لحلمي في التشجيع)، وأنجبت، ومررت بتجربة الطلاق المريرة، وفكرت كثيرًا في المهنة التي تخليت عنها.

لكنني تعلمت درسًا ليلة استبعادي من فريق التشجيع قبل سنوات. على المرء أن يعمل باجتهاد ويبذل أقصى طاقته، وإذا أخفق فعليه أن يجمع شتات نفسه، ويستعد للجولة التالية، ثم يبدأ من جديد.

وهذا ما فعلته بالضبط.

الفصل الذي فقدته

بحلول خريف عام ١٩٨٧ كنت أمًّا تعول أطفالها وحدها، وتحتاج إلى عمل يقدم لها مزايا. اتصلت بالمكتب المركزي للمنطقة التعليمية، وأدرجت اسمي ضمن الراغبين في العمل معلمات بديلات. وجب على كل المعلمات البديلات حضور تدريب مدته ثلاثة أيام،

يعرض إرشادات لإدارة الفصل ووضع خطط الدروس. واندهشت من فيض الذكريات التي عاودتني في ورشة العمل هذه من أيام عملي معلمة، ووجدتني متحمسة للبدء.

بعدها مباشرة تلقيت اتصالًا للحلول محل معلمة تدرس للصف السابع. ذهبت إلى المدرسة ذلك الصباح سعيدة بعودتي للعمل في التدريس. فثمة شعور مريح بداخلي؛ شعور بأنني «أنتمي لهذا المكان». اطلعت على خطط دروس المعلمة لذلك اليوم، واندهشت عندما علمت أنني يجب أن أصطحب الطلاب إلى ساحة اللعب في الخارج، بمجرد انتهائهم من إكمال أوراق عملهم. وأدهشني أكثر انتهاء طلاب الفصل الأول من عملهم خلال خمس دقائق. فقلت لهم: «تقول معلمتكم إنكم متى انتهيتم يمكنكم ...»

لم أتم عبارتي لأن الطلاب كانوا يغادرون الفصل. فجمعت بسرعة مفاتيح الفصل وخرجت لألحق بالطلاب. خرجت إلى الرواق ونظرت يمنة ويسرة. لكنهم قد اختفوا. فافترضت أنهم يعرفون النظام المتبع وذهبوا إلى ساحة اللعب مباشرة، فذهبت إلى هناك أيضًا.

لكنني لم أجد طالبًا واحدًا.

عدت إلى المبنى وشرعت أبحث حولي. بحثت في الحمامات والمطعم وأسفل الدرج. لكن دون جدوى. المشكلة أنني كنت أبحث عن أشخاص لا أعرفهم، عن غرباء كنت قد قابلتهم قبل خمس دقائق فقط. لم أعرف ماذا كانوا يرتدون أو مَن هم. لقد فقدتهم.

لن أنسى أبدًا وأنا أدخل مكتب المدير ذلك الصباح لأخبره أنني فقدت فصلي. أظن أنه ابتسم بالرغم من قلقه، وقبل أن نقرر ما يجب فعله رن جرس انتهاء الحصة. فنظر أحدنا إلى الآخر ونحن نفكر في نفس الفكرة: لا بد أن يكون الطلاب الآن في طريقهم إلى الفصل، لحضور الحصة الثانية مع معلمة حقيقية تعرف أسماءهم. فعدت إلى الفصل وغيَّرت خطط دروس اليوم. إذ ألغيت وقت ساحة اللعب لبقية اليوم، وكان لزامًا عليَّ أن أجد طريقةً مبتكرةً لاحتواء فصل من المراهقين الحانقين الذين ينهون تدريباتهم في خمس دقائق. وهكذا رقصنا وغنينا وألقينا المزحات لبعض الوقت لملء وقت الحصة. بالطبع أبدى الطلاب معارضة في البداية، وخشوا أن يشاركوا مع المعلمة البديلة. لكنهم سرعان ما استجابوا لأسلوبي التدريسي، وشعرت أن غريزتي التدريسية ربما لا تزال عاملة. حينئذٍ تأكدت أنني أريد أن يكون لي فصلي الخاص مرة أخرى؛ على الأقل سأعرف وقتها أسماء طلابي.

الفصل الذي عجزت عن التدريس له

عدت للتدريس في فبراير عام ١٩٨٨. ظهرت حاجة لمعلمة مهارات لغوية للصف الثامن، وقلت لنفسي: «لا يمكن أن يكون التدريس لطلاب المدرسة الإعدادية صعبًا للغاية.» إذ درَّست من قبل لطلاب المدرسة الثانوية. غير أن أحدًا لم ينبهني لمخاطر بدء التدريس في منتصف العام الدراسي. سارع الطلاب بإخباري أنهم تخلصوا من ثلاث معلمات قبلي، وأنهم ظلوا يُرهبون المعلمات البديلات لمدة شهر (وعاودتني ذكريات الطلاب الذين أضعتهم).

لم أواجه في حياتي مشكلات سلوكية كالتي واجهتها مع هؤلاء الطلاب. فهم لا يجلسون أبدًا. بل يظلون يتجولون في الفصل، وينظرون من النافذة، ويقرص بعضهم بعضًا، دون أدنى اعتبار لوجودي. وكأنني غير مرئية. جعلوني أرتبك بشدة حتى إنني كنت أتلفظ الكلمات خطأ، وهذا جعلهم يسخرون مني.

بدت عودتي للتدريس أشبه بالتدريس في الفصول الدراسية التي نراها أحيانًا في برامج التلفزيون وفي الأفلام؛ إنها فصول تضم طلابًا مخربين يتجولون في الفصل متجاهلين المعلمة، وفيها تتطاير الأوراق على شكل صواريخ وقذائف، وفيها طلاب يقفون في النوافذ ويصيحون في المارة. أرعبني بشدة أن أتخيل نفسي في النسخة الواقعية من هذا السيناريو.

على الفور فعلت نفس الشيء الذي فعلته عندما درَّست لأول مرة. طلبت المساعدة. جلست في مكتب مدير مدرستي، وسألته لماذا لم يخبرني أنني سأدرِّس لشياطين لأربعة أشهر. فابتسم ابتسامة عريضة، وأخبرني أنني صغيرة السن (وقال إنني جميلة، لكنني أظن أنه كان يتملقني حتى لا يخسر المعلمة الرابعة)، ويجب أن أحاول بجهد أكبر جعلهم يحترمونني. وأخبرني أيضًا أنه يعرف على وجه الدقة الوسيلة الملائمة لمساعدتي، ألا وهي وضع مراقب في الفصل. سعدت بسماع ذلك. ففي عامي الأول في التدريس لم يدخل أي شخص بالغ فصلي. أما في تلك المدرسة فسيدخل المراقب ويشاهدني وأنا أعمل، ويدون ملحوظات؛ ومن ثم يصلح كل شيء. لم أُومِن بجدوى ذلك النظام، لكنني تيقنت من أمر واحد؛ ما دام المراقب في الفصل فلن أبقى وحدي مع هؤلاء الأطفال.

ما زال بحوزتي تقييمه الأول:

عرض المادة العلمية: متوسط

تُكيف العمل حسب احتياجات الطلاب. تحتاج إلى اتباع خطة الدرس المكونة من ست خطوات بحذافيرها. (لم أرَ أو أسمع من قبل عن خطة درس مكوَّنة من ست خطوات.)

إدارة وقت التدريس: أقل من المتوسط

تحتاج إلى الانتباه بشدة لمدى المشاركة الفعالة للطلاب. (لم أعلم معنى «المشاركة الفعالة». بل أردتهم فقط أن يقضوا كل وقتهم في مقاعدهم.)

التعليقات التعليمية: متوسط

تعليقاتها على عمل الطلاب في الفصل جيدة. (هل قاموا بأي شيء اليوم؟!)

التعامل مع سلوك الطلاب: أقل من المتوسط

تحتاج باستمرار إلى فرض قواعد محددة في الفصل. (هل هذا رأيك فعلًا؟!)

التفاعل في البيئة التعليمية: فوق المتوسط

تقدم أفضل ما يمكنها للطلاب. (هذا صحيح.)

دفاعي عن نفسي أنني ظللت بعيدة عن التدريس سبع سنوات، وكنت أجهل معايير تلك التقييمات. لكن بالنظر إلى أحداث ذلك العام لا يدهشني أن يكون تقييمي كمعلمة بهذا السوء. أذكر أنني توجهت إلى مكتب المدير وسألت عن عدد أيام الإجازة المرضية المتبقية لي حتى آخر العام. وقسمت الرقم على عدد الأسابيع المتبقية في العام. إذ أردت أن أجد وسيلة لأخذ يوم إجازة مرضية كل أسبوع، حتى لا أتعامل مع تلك الفصول سوى أربعة أيام في الأسبوع.

كان ذلك العام واحدًا من أكثر الأعوام الدراسية ضغطًا طوال حياتي. لكنه كان آخر عام أحصل فيه على تقدير «أقل من المتوسط» في التقييم. **عندما اجتمعت أنا والسيدة وورنكي بعد أعوام عديدة سألتها كيف كانت معلمة جيدة منذ البداية. فأجابتني: «ظننت أنني لم أكن كذلك. فلم أخطط حقًّا لما فعلته ذلك العام.** كنت أدرِّس مادة الدراسات الاجتماعية لطلاب المرحلة الثانوية في عامي الأول، ثم أصبحت معلمة للصف الأول يجب عليها أن تدرِّس كل شيء: رسم وموسيقى وقراءة. شعرت أنني ضائعة وغير مستعدة.»

«ضائعة» هي الوصف الملائم لحالي ذلك العام. علمت أنني يجب أن أعثر سريعًا على المعلمة بداخلي بالرغم من صعوبة ذلك. ومع أن البداية كانت صعبة فإنني ظللت عازمة على إحراز النجاح، وهكذا بدأت العام التالي.

الفصل الثالث

إقامة العلاقات

«عسى أن تفكر إحدانا في الأخرى ...»

باربرا وورنكي، يونيو ١٩٦٧

لديَّ مبدأ أتبعه. في الواقع إنني أتبع عدة مبادئ، لكن أحد المبادئ الذي أظل أردده مرارًا وتكرارًا على أسماع المعلمين الجدد هو: «إذا عاديتهم فستكون أنت الخاسر.» اعتبرت بعض الطلاب أعدائي خلال أول عامين لي في التدريس وكنت أنا الخاسرة. خسرت احترام زملائي، وجافاني النوم، وفقدت الثقة في قدرتي على التدريس. خسرت بكل ما تحمل الكلمة من معنًى.

عندما بدأ أول عام دراسي لي بطريقة حديث وقحة من جانب أحد الطلاب، مما شجَّع غيره من الطلاب على الانضمام إليه، كان رد فعلي الفوري اتخاذ موقف معادٍ لهم، وأصبحت علاقتنا «أنا ضدهم». وقضيت العام بأكمله في محاولة للتغلُّب على هذا الشعور. وفي عامي الدراسي الثاني لم أتحسَّن كثيرًا. إذ إن الطالب الذي سخر مني عندما أخطأت في نطق كلمة وصاح قائلًا: «انطقيها بصورة صحيحة!» انطبعت صورته في عقلي ولم تفارقني قط.

وفي عامي الدراسي الثالث، بدأ يحدث تدريجيًّا شيء ما. ما كان في البداية لحظة إدراك خاطفة بدأ يزداد ويتنامى بداخلي، على نحو يشبه بعض الشيء ما حدث لقلب جرينتش في قصة الأطفال المعروفة. فقد بدأت أدرك أن طلابي الذين يعانون مشكلات تقدير الذات عادة ما يتصرفون في المدرسة من هذا المنطلق، بغرض جذب الاهتمام، «أي» اهتمام، وإن كان سلبيًّا. اكتشفت أن التماهي مع هؤلاء الطلاب، وربما رؤية جزء من

نفسي فيهم، كان وسيلة لإخماد المعركة المشتعلة في فصلي. وأصبح شعوري نحوهم «نحن معًا في هذا الأمر» بدلًا من «أنا ضدهم». وفوق كل ذلك أدركت في ذلك العام أنه لا مانع من أن «أهتم» بشأن طلابي.

البدء من جديد

ذلك العام انتظرت أول يوم في الدراسة بفارغ الصبر. إذ كنت سأدرِّس مادتَي الدراما والرقص الاختياريتَين، وأسعدني أنني لم أنزعج من كون فصلي مقطورة خربة تقبع بجوار موقف سيارات هيئة التدريس. كنت أعرف أنني سأحظى هذه المرة بفصلي الخاص منذ أول يوم في العام الدراسي، وأن ذلك الأمر سيكون بالتأكيد مختلفًا. فلن تكون هناك معلمات بديلات قبلي هناك، بل سأكون وحدي ومعي توقعاتي عن أول يوم في الدراسة. عندما كان جرس الحصة الأولى على وشك الانطلاق صعدت درجات تلك المقطورة المتداعية. تدلى درابزين المدخل بمسمار واحد صدئ، وكنت أحاول تثبيته عندما رأيت أولى تلاميذي يقتربون. شاهدت فتاتَين تركضان نحوي وهما تتجادلان بصوت عالٍ. توقَّفتا آخر الأمر أمام المقطورة، وقالت إحداهما: «سيدتي، وصفتني لاشون لتوها بأنني عذراء!»

حاولت في ذهول استجماع أفكاري لإخبارها أن أحدًا لا يمكنه جرحها بكلامه، لكنني وجدت نفسي أقول: «أنتِ في الصف الثامن. ما العيب في وصفك بأنك عذراء؟»

حدقت فيَّ الفتاة كأنها لا تصدق ما قلته للتو. وصرخت قائلة: «لأنها ليست الحقيقة!»، وركضت باتجاه الموقف. فأرسلت الفتاة الأخرى — التي علَتْ وجهها أكثر ابتسامة بلهاء رأيتها في حياتي — لإعادة الآنسة «أنا لست عذراء». بعد عودتهما تحدثت مع لاشون، ونصحتها بعدم الإساءة إلى أحد. وطوال الوقت الذي كنت أحدثها فيه كانت تبتسم ابتسامة عريضة إليَّ. حتى إن الابتسامة تحولت في بعض الأحيان إلى ضحك، وسرعان ما وجدت نفسي غير قادرة على مقاومة الضحك أنا الأخرى.

ثم اتضح لي أن هذا هو المتوقع من لاشون. إذ اعتادت «القفز» إلى المقطورة كل يوم، ولم أرها يومًا تسير. كانت تثب فوق درجات المقطورة الثلاث وتقفز في الحجرة وتردد نفس الشيء يوميًّا: «أيمكنني الذهاب للمتجر؟»، تقصد متجر البقالة في الجهة المقابلة من الشارع. وكنت أجيبها كل يوم نفس الإجابة بأنها لا يمكنها «بالطبع» مغادرة حرم المدرسة وعبور الشارع. حينئذٍ كانت لاشون تتراجع خطوتَين وهي تضرب الأرض بقوة بقدمَيها. وفور أن تتوقَّف المقطورة عن الصرير كانت ترفع لاشون ذراعها

— بأسلوب يحاكي شكل تمثال الحرية — وتقول: «كل يوم أسألك هل يمكنني، أنا لاشون ويليامسون، أن أذهب إلى المتجر، وكل يوم تقولين لا!» ثم كانت تجلس وتنظر أمامها وعلامات الاستياء ترتسم على وجهها. ودائمًا ما كنت أكتم ضحكي وأحاول التصرف باحتراف، بالرغم من صعوبة ذلك. ثم أقول لها في النهاية: «حسنًا، دعينا نبدأ العمل يا لاشون.»

مع الوقت أدركت أنني أحب تلك الفتاة. منذ لحظة دخولها المقطورة قفزًا وحتى انتهاء الحصة وقفزها خارج المقطورة، كنت أدرك أن التدريس يمكن أن يكون أمرًا ممتعًا بالفعل. ثم بدأت تلك العاطفة تنتقل إلى غيرها من الطلاب في الفصل، الذين كانوا يضحكون من تصرفات لاشون مثلما أضحك، وإلى غيرهم من طلابي في الفصول الأخرى. فكنا نعمل بجد بعض الوقت، ونضحك بعض الوقت، ثم نعاود العمل. حتى إنني بدأت أجد أنه لا غضاضة في لمس الطلاب؛ فلم أحاول مطلقًا في بداية عملي أن أربت تربيتة خفيفة على كتف طالب. وسرعان ما امتلأت فصولي بالروح العائلية، وصرت أتشوَّق لرؤية طلابي كل يوم.

في نفس العام الذي كانت تردِّد فيه لاشون وصلتها الصباحية اليومية في المقطورة، كانت لديَّ طالبة أخرى تدعى ويندي، وهي فتاة هزيلة بشرتها شاحبة بشدة. أخبرتني ويندي في شهر نوفمبر أنها حبلى. لم أصدق في البداية أن ذلك ممكن، أنني أدرِّس لطالبةٍ تنتظر مولودًا. فأطفالي كانوا لا يزالون صغار السن. لكن بعد انتهاء إجازة الشتاء ظهرت على ويندي أمارات الحمل بالفعل، ومع مرور الوقت لم يكن بمقدورها الشعور بالراحة وهي جالسة في مقعدها المعتاد. لهذا أحضرت لها كرسيًّا قماشيًّا محشوًّا، وسرعان ما أصبحتُ مضطرة إلى مساعدتها في النهوض من عليه في نهاية الحصة.

أحيانًا كنت أدعها تجلس معي قليلًا نتحدث بعد انطلاق جرس انتهاء الحصة. واستمعت إليها وهي تحدثني عن أهمية ذلك الطفل لها، وعن مدى حبها لوالد الطفل، وعن حياتهما المستقبلية. وبعد مدة ليست بالطويلة احتضنتُ طالبتي في الصف الثامن وهي تنتحب وفاة طفلها الذي نزل قبل موعده. وبعدها بوقت قصير تركها والد الطفل ورحل. أخبرتني أنها لم تكن ستحضر إلى المدرسة ثانية، لولا رغبتها في الحضور إلى فصلي. إذ كان المكان الوحيد الذي تشعر فيه أنها على طبيعتها ولا يزعجها فيه أحد. حينئذٍ فقط أدركت أنني أقدِّم ما هو أكثر بكثيرٍ من منهج الرقص والدراما.

ومع مرور الوقت، شعرت تدريجيًّا بأهمية إقامة علاقة مع الطلاب في فصلي والحفاظ عليها. جذبني المراهقون الذين يعانون مشكلات الثقة في النفس بصفة خاصة،

وقد اتضحت لي الأسباب في ذلك الآن، غير أنني لم أفهمها حينئذٍ. لا أعلم لماذا لم أتمكن في بداية عملي من استدعاء ذكريات الصف الأول — وتقبل السيدة وورنكي التام غير المشروط لي — **لكنني بدأت بالفعل أدرك أن قبولي «جميع» تلاميذي، بعيدًا عن الصعاب التي يواجهونها يوميًّا في حياتهم، سيكون سر نجاحي في تعليمهم**. ومع توطد علاقتي بطلابي، اكتشفت أنني لم أكن أُدرِّس لهم فقط، بل كنت أتعلَّم منهم أيضًا.

لنأخذ حالة كيرتس كمثال. إنه فتًى ضخم ولاعب كرة قدم أمريكية، كان يتميز بابتسامة رقيقة تعلو وجهه دائمًا وهو يدخل فصلي في الحصة الأولى. ذات يوم وعلى خلاف العادة حضر غاضبًا وهاجم كل من حوله — وأنا من بينهم — بعبارات جارحة. ولأنني أعلم تمامًا أنه طالب مهذب بطبعه فقد تحدثت إليه، وقررت عدم إرساله لمكتب المدير. لكنه للأسف تصرف بوقاحة مع معلمة الحصة التالية، ثم حدثت مشادة ثانية بيننا في مطعم المدرسة، بسبب مشكلة تافهة تتعلق بمكان جلوسه في صف تناول الغداء. في النهاية أخبرته أنني مضطرة لتحويله إلى التأديب، وأمرته بالتوجه مباشرة إلى مكتب المدير.

فصاح في وجهي: «أنت لا تبالين بوفاة والدي ليلة أمس!» صدمني الرد. وأول ما فكرت فيه هو سؤاله عن سبب حضوره إلى المدرسة، ثم أدركت أنني تلقيت درسًا بالغ الأهمية. فلا بد باعتباري معلمة أن أضع في حسباني المتغيرات الكثيرة التي تؤثر في سلوك طلابي. ظننت بالتأكيد أنني فطنة بالقدر الكافي بحيث ألاحظ وجود مشكلة، لكن ما حدث مع كيرتس ذلك اليوم ذكَّرني كيف عاملَت السيدة وورنكي كل طالبٍ في فصلها بدرجةٍ عاليةٍ من الفطنة، كنت لا أزال أحاول الوصول إليها.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن كينتون.

صور الأشخاص البرتقاليين

كان كينتون أحد طلاب الفصل الذي أشرف عليه، وقد درست له لمدة عام الحصة الأولى عندما كنت أدرس المهارات اللغوية لطلاب الصف السابع، وسعدت برؤيته كل يوم في الحصة الأولى. لطالما ربطتني علاقة وثيقة بطلاب الفصل الذي أشرف عليه لأننا نقضي وقتًا طويلًا جدًّا معًا. وفي يوم التقاط صورة الفصل، أصطحب الطلاب إلى قاعة الاستماع وأحثهم على الابتسام، وفي أيام الاختبارات أحضر البسكويت ليفطر الجميع، ثم أحرك أصابعي كالساحرات وكأنني ألقي عليهم «تعويذة» الإجابات الصحيحة. إنهم الطلاب

الذين أوزع عليهم بطاقات تقييم الأداء، وأعد ملفاتهم الخاصة بتقدمهم التعليمي. ومن الطبيعي أن أرتبط بهم. لكن كينتون لم يسمح لأحد بأن يكون قريبًا منه. مبدئيًّا، كان يحضر تقريبًا كل يوم إلى المدرسة غاضبًا. فيدخل الفصل وهو يتذمر من سائق حافلته.

كان يقول بصوت مسموع: «سيدة ريجزبي، تعرضت للطرد من الحافلة مرة أخرى.» بالطبع كنت أسأله على الفور عما حدث هذه المرة.

وكان كينتون يجيبني: «لقد كذب عليَّ مرة أخرى!» ثم يمسك بمقعد ويدفعه بقوة، ويراقبه وهو ينزلق على الأرض مصدرًا صريرًا عاليًا. تكمن مشكلة المدرسة الإعدادية في أنها مليئة بالكذابين. وبالسارقين أيضًا على ما يبدو. فلم يكن بحوزة كينتون مطلقًا قلم رصاص. ولا في أي يوم. لذا كان يطلب مني قلم رصاص كل يوم.

فأسأله: «كينتون. أين القلم الذي أعطيته لك بالأمس؟»

فيجيب: «لقد سُرق.»

«أين كنت تضعه؟» (كنت أشعر لسبب ما برغبة في إيقاف الدرس لاستكمال المحادثة.)

«في خزانتي.»

«ألم تضع قفلًا على خزانتك؟» (لماذا كنت أتابع الحديث وأشتِّت انتباه تسعة وعشرين طالبًا؟!)

فتأتي إجابته بلا مبالاة: «بلى وضعت. لكن أحدًا عرف أرقام القفل.»

فأقرر مجاراته في الحديث. فأسأله: «هل أعطيت أرقام القفل لأحد أصدقائك؟»

«لا. لكنهم استرقوا النظر وأنا أفتح القفل.»

كانت تدور بيني أنا وكينتون محادثات مشابهة كل يوم، وفي أحد الأيام كنت قد سئمت من هذا. يومئذٍ بدأ كينتون النهار كعادته متذمرًا من سائق الحافلة. أعلن اعتراضه أمام الفصل كله ثم جلس وطلب قلم رصاص. فقلت له: «كينتون، ليس لديَّ قلم رصاص. وأتعرف ماذا أيضًا؟ لا توجد أقلام رصاص في الإدارة. بل لا توجد أقلام رصاص في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تعُد هناك أشجار لصنع الأقلام الرصاص!»

ودونما اهتمام مد كينتون يده إلى مائدة الأدوات والتقط قلم تلوين برتقالي اللون. فقلت في نفسي: «لا بأس. لا يهمني ما يفعل. فليكتب بقلم تلوين برتقالي ما دام سيؤدي واجبه.» وهكذا أكملت الشرح، وكنت أنظر إلى كينتون بين الحين والآخر فأجده يكتب. لكنني لم أنظر إلى ورقته عن كثب في البداية. لكن كان بإمكاني ذلك؛ فمنذ أول يوم في الدراسة، كان مقعد كينتون يوجد في «صف المُعرَّضين للضرب».

(بالطبع أنا لا أضرب طلابي. لكنني في ذلك الوقت أطلقت بمودة على الصف الأول من المقاعد «صف المعرضين للضرب» لأنني — كما أخبرت الطلاب — قريبة من هذه المقاعد وأستطيع الوصول إليها من الأمام. قلت لهم: «من الأفضل أن يؤدي الجالسون في هذا الصف واجبهم لأنهم في متناول يدي.» وفي المقابل أطلقت على المقاعد في آخر الفصل اسم «صف الذراع الخارقة»، إشارة إلى الشخصية الكرتونية المفتش جادجيت الذي تمتع بأطراف آلية، كان بمقدوره مدُّها إلى مسافات طويلة. وقد أطلقت اسم «صف المعرضين للضرب» من باب المزاح والفكاهة مع الطلاب الذين وقع عليهم الاختيار للجلوس في المقدمة. أما بعد ذلك فقد أصبحت أكثر حرصًا في تسمية الصفوف، وأصبح اسم الصف الأول «صف الجالسين في متناول اليد». لكن حينما درَّست لكينتون كان الاسم ما يزال «صف المعرضين للضرب».)

أخيرًا اتجهت نحو كينتون وأنا أشرح الدرس؛ لألقي نظرة على ما يكتبه بالقلم البرتقالي. وفور أن رأيت الورقة أصابني الذعر. فلم يكن كينتون يؤدي واجبه. بل كان يرسم أشخاصًا برتقاليين على هيئة خطوط ودوائر.

لا أعتقد أن بإمكاني أن أجد الكلمات المناسبة لوصف الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة. كل ما يمكنني قوله أنه بدأ من أخمص قدمي وتصاعد إلى أعلى جسمي. وعندما وصل إلى فمي، صرخت وأنا متكئة على مكتبه: «كينتون!» لم يرفع كينتون رأسه بل رفع بصره لينظر إليَّ.

في تلك اللحظة تحتَّم عليَّ اتخاذ قرار. فكرت في كل العبارات التي يمكنني توجيهها إليه وأنا واقفة فوق رأسه. كان بمقدوري إهانته. كان بمقدوري تقريعه بشأن حضوره إلى الفصل كل يوم غاضبًا، وفقدانه قلمه الرصاص دائمًا وعدم تأديته الواجب. لكنني رأيت في تلك اللحظة صورة سيندي الصغيرة في الصف الأول، وسمعت صوتًا يهمس في أذني قائلًا: «ماذا كانت السيدة وورنكي ستفعل في هذا الموقف؟»

وفجأةً عرفت ما يجب عليَّ فعله. أخذت نفسًا عميقًا ثم تحدثت إليه بهدوء قائلة: «كينتون، [نَفَس طويل] إنهم أجمل أشخاص برتقاليين رأيتهم في حياتي.» وأطلق جميع الطلاب في الفصل زفرات الارتياح. ابتسم كينتون في وجهي، ثم تغير كل شيء منذ تلك اللحظة. إذ ظللت أتلقَّى ما أطلق عليه صور الأشخاص البرتقاليين طوال العام. وبدأ كينتون يؤدي واجبه بالقلم البرتقالي، وكنت أستلم الواجب منه كل يوم وأثني عليه،

وأمنحه درجة على الورقة كما أفعل مع باقي الطلاب. وقرب انتهاء العام الدراسي كانت واجبات كينتون — التي جميعها في صورة صور لأشخاص برتقاليين — تُزيِّن حيطان الفصل.

وبعد آخر رحلةٍ ميدانية لنا ذلك العام، توقفنا عند أحد مراكز التسوق المحلي ليتناول الطلاب الغداء في قاعة الطعام. كان كينتون في مجموعتي، وقد تجوَّل بعضنا في المركز ريثما يفرغ الباقون من تناول الطعام. كنت أول من لاحظ وجود معرض فني بمنتصف المركز، وبعد تدقيق النظر اكتشفت أنه معرض فني لمدارس المنطقة التعليمية، حيث شارك معلمو الرسم في كل مدرسة بمنطقتنا بأعمال طلابهم الفنية. لم أصدق عينيَّ عندما شاهدت رسمًا لأشخاص برتقاليين بعرض ١٨ بوصة وطول ٢٤ بوصة!

انعقد لساني. وارتجف ذقني. ثم قلت: «كينتون. كينتون. إنها لوحتك.»

فأجابني: «هذا صحيح. فمعلمة الرسم أحبتها أيضًا.»

وتذكرت اليوم الذي اتخذت فيه ذلك القرار المهم بتقبُّل كينتون دون قيدٍ أو شرط، من خلال الإطراء على رَسْمه؛ إنها نفس المعاملة التي تلقيتها منذ أعوامٍ طويلة وأنا في الصف الأول أحاول نظم الشعر. وفكرت كيف أن تعليقًا واحدًا حوَّله من طالبٍ غاضبٍ في الصف السابع إلى طالب مُجدٍّ يريد إرضاء معلمته. وتأكدت حينئذٍ أنني اتخذت القرار الصائب.

السيدة فينيت والسيدة هيلفاند

أيتها السيدة فينيت والسيدة هيلفاند: لن أنسى الأثر الذي تركتماه في نفسي وأنتما تدرِّسان لي في حصص الرسم. فكلتاكما أشعلت الحماسة في صدري لأترك بصمتي بوصفي فنانًا، وفي النهاية بوصفي معلم رسم. انبهرت وأنا صغير بمهارتكما في الرسم. وحلمت أن أكون في مثل براعتكما. وعندما لاحظَت إحداكما اهتمامي المبكر بالرسم، أهدتني كتابًا مليئًا بصور الديناصورات بالأبيض والأسود (للأسف نسيت أيتكما أهدتني الكتاب، لعلكما تذكران). وقد رسمت بسعادة كل صورة في هذا الكتاب.

حدث ذلك عام ١٩٦٦/١٩٦٧ عندما كانت المدرسة الإعدادية تضم الصفَّين السابع والثامن، وأعتقد أن كلتَيكما درَّست لي ذلك العام الدراسي. ما فعلتماه من أجلي كان مذهلًا. سيدة فينيت: كانت لديكِ القدرة على كتابة اسمك بكلتا يدَيك في آنٍ واحد؛ إذ كتبت اليد اليمنى الاسم في الاتجاه الطبيعي، من اليسار إلى اليمين، وكتبَت اليد اليسرى الاسم بالاتجاه العكسي، من اليمين إلى اليسار. وحتى يومنا هذا لم أكتشف كيف تمكَّنت من فعل ذلك.

سيدة هيلفاند: لقد علمتني كيف أرسم شخصًا بتقسيم كل جزء من جسمه إلى أشكال هندسية أساسية، تمامًا كما يستخدم طلاب الفنون دُمى العرض لدراسة أجزاء الجسم. ثم أوكلت أمهر الرسامين في الفصل مهمة تنفيذ رسمٍ جداري، أضفى جمالًا على الممرات المؤدية للرواق الموجودة فيه خزانات الجوائز التي حصلَت عليها المدرسة. وكان دوري رَسْم مشهدٍ من مباراة كرة سلة وتلوينه، أتتذكرين ذلك؟

ظلَّت هاتان التجربتان عالقتَين في ذهني حتى اليوم، وأشكركما لأنكما كنتما معلمتَي رسم لا يمكن نسيانهما في مدرسة فان وايك الإعدادية، في ٢١٧ حي كوينز بمدينة نيويورك (دفعة عام ١٩٦٧). أشكركما على تلك الخبرات التعليمية الإيجابية التي رافقَتني طوال حياتي.

إدني إل فريمان، معلم مواد متنوعة للصفوف من التاسع وحتى الثاني عشر
بمدرسة شارلوت أمالي الثانوية بسانت توماس في فيرجين آيلاندز،
والحائز على لقب معلم العام في فيرجين آيلاندز عام ٢٠٠٩

رؤية جديدة

وهكذا بدءًا من عامي الثالث في التدريس، أدركت أهمية إقامة علاقات مع طلابي. لكنني لم أستوعب بشكل كامل تأثير تلك العلاقات عليهم إلا بعد مرور بضعة أعوام. ثم بدأت الخطابات تردني في عامي الخامس من التدريس تقريبًا. كان تقاطرها بطيئًا في البداية لكنها بدأت تصل بانتظام بعد ذلك.

ونتيجة لحدوث دمج بين مدارس المقاطعة والمدينة، كنت أعمل في مدرسة أخرى عندما ذات يوم رأيت كيشيا — وهي طالبة درست لها منذ أعوام — تقف أمامي في الفصل محدِّقة فيَّ. كنت قد عملت جاهدة على إقامة علاقة مع تلك الفتاة التي عانت بعض المشكلات مع أي شخص في موضع سلطة، حتى بعد أن واجهتني يومًا في حمام الفتيات، ووصفتني بأنني «ملكة جمال أمريكا الحقيرة». لم أفهم المقصود بملكة جمال أمريكا، لكنني فهمت الباقي بالتأكيد. حضرت كيشيا لتخبرني أن معلمتها في المدرسة الثانوية طلبت من كل طلاب الفصل كتابة خطاب لمعلمة «تركت أثرًا في حياتها». وبعد قراءة الخطاب شعرت بالذهول. فحتى تلك اللحظة لم أكن أتصور أن طلابي السابقين حتى يتذكرونني.

كتبت كيشيا بخط متصل جميل خطابًا من ثلاث صفحات.

أنت علمتني أن أستخدم عقلي بدلًا من قبضة يدي. وساعدتني على اجتياز صعاب المدرسة وصعاب الحياة بوجه عام. لو كانت عندي طالبة مثلي لا أعتقد أنني كنت سأمنحها كل الوقت الذي منحتني إياه. ... أعتذر لكِ عن كل الألم الذي سبَّبته لك. لكن لم يعُد الناس ينظرون إليَّ الآن ويعبسون. بل باتوا أحيانًا يبتسمون. أنا مدينة لكِ بالفضل في جانبٍ كبير من ذلك. ولن أنسى ما حييت كل ما فعلته من أجلي.

ما زلت أتذكَّر أين كنت أقف في الفصل وفمي مشدوه وأنا أقرأ تلك الكلمات.

وبعد يومَين، وصلني خطاب من طالبة أخرى في نفس الفصل بالمدرسة الثانوية، تقول فيه: «طلبت منا معلمتنا إرسال خطاب للمعلمة التي تركت في نفوسنا أكبر الأثر، وعلى الفور تذكرتك. ... أنت تهتمين بشئون الآخرين وتحترمين مشاعرهم.»

وأخيرًا، على ما يبدو، بدأتُ أدرك الدور الذي يجب أن أقوم به كمعلمة. فقد تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن العلاقات التي أقمتها مع طلابي تتحدى الزمن. فأنا أهتم بشئون الآخرين كما اهتمَّت بي السيدة وورنكي، وقد أحسوا بذلك.

غير أن إقامة هذه العلاقات كانت تتطلب مجهودًا إضافيًّا في بعض الأحيان. ففي أحد الأعوام درست المهارات اللغوية لفصل في الصف السابع، كان من الصعب للغاية على طلابه التركيز فيما يتلقَّونه من تعليم. لم يكن الفصل كبيرًا، بل ضم أربعة عشر طالبًا مفعمًا بشدة بالحيوية وطالبة واحدة تدعى تينيشا. حاولت تينيشا أن تصمد في هذا الفصل، لكن بالرغم من كل جهودها، كانت الغلبة للفتيان. اعتاد ديماريو وإمحوتب الجلوس في مقعدَيهما والرسم، وكانا بارعَين فيما يفعلان. أما سيرون فقد ظل يدندن نفس الأغنية الصغيرة مرارًا وتكرارًا. كانت الأغنية تقول: «دو دو دودو دودو ...» كلما سادت لحظة صمت — كأن أتوقف عن الشرح لحظة لألتقط أنفاسي — انطلق سيرون يغني «دو دو دودو دودو ...» أما جوناثان، أضخم طالب في الصف السابع أدرس له في حياتي، فكان لاعب كرة قدم أمريكية، يطلق عليه رفاقه في الفريق اسم «الزلزال». اتسم الفتى بالخجل والهدوء الشديدَين، واستمتع باقي الطلبة بالاصطدام به، الاصطدام بالمعنى الحرفي. إذ كانوا يلقون أنفسهم عليه ثم يرتدون كالكرة! وكان هذا هو أهم أحداث الحصة، فهم يفعلون ذلك مع دخولهم وخروجهم من الفصل، يصطدمون بـ «الزلزال».

لذا لم يكن من المستغرب أن أجد صعوبةً في السيطرة على ذلك الفصل النشط للغاية، ونحن نسير باتجاه قاعة الطعام. اعتدنا السير بمحاذاة مبنى المدرسة للوصول إلى باب

المطعم، وبالطبع كان يقطع الفتيان هذه المسافة وهم يركضون ويقفزون ويتدافعون ويتعثرون ويلعبون، في حين كنت أسير أنا وتينيشا خلفهم. كثيرًا ما وجَّه سيرون صفعة لإمحوتب وجرى بأقصى سرعة في مطاردة مع الفتيان الآخرين. وذات يوم خطرت لي فكرة. استأذنت المديرة في وضع برنامج تحفيزي لهذا الفصل، ووافقت على طلبي. ينص البرنامج الجديد على أن الطلاب إذا أحضروا جميع الأدوات إلى الفصل، وأدوا واجبهم، وساروا بنظام في رحلتَي الذهاب إلى المطعم والعودة منه كل أسبوع من يوم الإثنين إلى يوم الخميس، فسأصطحبهم يوم الجمعة إلى قاعة الطعام في مركز التسوُّق المحلي لتناول الغداء.

ثم وضعت جدولًا معقدًا لأنماط سلوك الطلاب داخل الفصل، وبالرغم من صعوبة تسجيل أداء كل طالب يوميًّا، فقد نجحت الفكرة. لقد حدث تغير تام في سلوك الطلاب وارتفع معدل إنجازهم. فقد أحبوا الذهاب إلى مركز التسوق المحلي أيام الجمعة، ربما حتى بقدر ما أحببته! فكنت أصطحبهم في شاحنة النشاط الخاصة بالمدرسة، ثم نعود بانتهاء وقت الغداء.

توطدت علاقتي بطلاب هذا الفصل لأنهم أصبحوا بالنسبة لي «جماعة الغداء». وسرعان ما شرعنا نخرج في عطلات نهاية الأسبوع أيضًا لمشاهدة الأفلام أو مباريات ألعاب الكرة. مرة أخرى أدركت الأثر المهم لإقامة تلك العلاقات الوثيقة مع الطلاب. لقد أحببت هؤلاء الأطفال، والأهم أنني أحببت التدريس لأن فصلي لم يَعُد ساحة قتال.

إعلان مفاجئ

شعرت أن ذلك العام، والذي كان عامي السابع في التدريس، كان عامًا مهمًّا بالنسبة لي لعدة أسباب. فبالإضافة إلى نجاح برنامجي التحفيزي غير التقليدي، اندهشت لترشيحي معلم العام عن مدرستي.

حالما سمعت الخبر، اتجهت إلى فصل زميلتي لأتأكد منها أن ما سمعته في إعلانات ما بعد الظهر كان اسمي بالفعل. ضحكَت زميلتي وأخبرَتني أنها رشَّحتني أيضًا؛ بسبب علاقتي الطيبة بالتلاميذ واجتهادي الشديد في العمل. بالطبع ملأني إحساس بالفخر والسعادة لأن العاملين في مدرستي شعروا أنني أقدِّم لعملي ولطلابي الكثير، لكنني قلقت قليلًا عندما علمت ما ينتظرني. فهذا الترشيح المشرِّف يعني أن أتلقَّى زيارةً من لجنة اختيار معلم العام بالمنطقة التعليمية التي أتبعها. ولن يكتفيَ أعضاء اللجنة بمراقبتي

وأنا أدرِّس للتلاميذ، بل سيبقون في المدرسة طوال اليوم، ليتحدَّثوا مع العاملين والطلاب حول شخصيتي وطريقتي في التدريس.

عندما أخبرت زملائي المعلمين بهذا، جاء رد الجميع: «سيلتقون بطلاب فصل الحصة الرابعة الخاص بك!» ثم عرض بعضهم أخذ عدد من تلاميذ «جماعة الغداء» خارج الحصة، غير أنني أردت التجربة أن تكون حقيقية. وأكدت للجميع أنني سأُبقي على جميع الطلاب، ونتصرف كما نفعل في أي يوم دراسي عادي.

بالطبع انزعج طلاب فصل الحصة الرابعة أكثر من الجميع. وصاحوا: «لكننا لا نحسن التصرف!»

وأضاف سيرون: «ولا يمكننا حتى أن نظل صامتين»، ثم أضاف: «دو دو دودو دودو.»

فطمأنتهم أن كل شيء سيكون على ما يرام، وواجهت السبورة لأكتب عليها. لكن ثمة أمرًا غريبًا حدث؛ كان الفصل هادئًا تمامًا. لم يكن هناك من يتحدث، أو يرسم بالقلم الرصاص رسمًا إبداعيًّا على ورقة بيضاء، أو يغني. حتى إنني خشيت أن أستدير.

ثم استدرت ببطء ونظرت إليهم. فاحتشدت الدموع في عينيَّ. إذ كان كل طلابي قد أغلقوا أفواههم بشريط لاصق. (علمت فيما بعد أن سيرون أخذ الشريط اللاصق من فوق مكتبي واستخدمه الجميع.) فطلبت منهم نزع الشريط. ولم ينفذ أمري سوى سيرون.

وقال: «نحن نتدرَّب على محاولة البقاء صامتين يا سيدة ريجزبي. ويمكننا أن نفعل ذلك والمحكِّمون في الفصل أيضًا!»

فسألته: «ماذا سيظن المحكِّمون إذا دخلوا ووجدوا كل الطلاب مكممين؟»

أنشد سيرون أغنيته القصيرة المعهودة ثانيةً.

لم أشعر بالتوتر يوم حضور المحكِّمين. بل كنت متوترة قبل ذلك، خاصة وقت إجراء المقابلات، أما وهم في «فصلي» مع «طلابي» فلم أقلق. تمنيت بشدة أن يروا كيف سعيت لتعليم هؤلاء الخمسة عشر طالبًا أن يكونوا قراءً أفضل من ذي قبل. **وسلحتهم بوسائل تساعدهم على التفاعل مع النص وتعزيز قدرتهم على الفهم. فعلت كل ذلك بمساعدة أهم أدواتي التدريسية، ألا وهي: العلاقات.**

وأنا أحضِّر درس اليوم المشهود، جمعت عدة صورٍ من إحدى المجلات. وفي اليوم المحدد جلس الزوار في الفصل، وطلبت من الطلاب النظر إلى الصور والوصول إلى أفكارٍ جماعية لكتابة عبارات وصفية. رفعت صورة تلو الأخرى وطلبت من الطلاب وصفها.

عندما حان دور جوناثان عرضت صورة منطاد هواء ساخن غني بالألوان، وتمنيت لحظتها لو عرضت صورة أخرى تكون مناسبة له أكثر؛ مثل صورة لحدث رياضي أو أي أمر يهم الذكور؛ إذ لم أشأ أن أجعله يشعر بعدم الراحة. لكنني كنت قد عرضت الصورة بالفعل أمام الفصل وأعضاء اللجنة، فطلبت منه وصفها.

سألته: «كيف ستصف هذه الصورة يا جوناثان؟»

اضطرب جوناثان وتنحنح وسعل ثم نظر إلى قدميه. وانتظر الجميع. نظر الطلاب إليه ثم إلى الزوار ثم إليَّ، ولسان حالهم يقول: «أَجِب. قُل أي شيء!»

وببطء شديد رفع جوناثان «الزلزال» بصره إليَّ، وقال بصوتٍ سُمع بالكاد: «إنه ... إنه ... مثل قوس قزح كمثريِّ الشكل.»

ساد الصمت في الغرفة. وتنهدت تينيشا. ثم همس باقي الطلاب: «أحسنت! أحسنت!» فقلت له والدموع تملأ عينيَّ: «يا له من وصف رائع يا جوناثان!»

لن أنسى مطلقًا تلك اللحظة ما حييت. وسأظل أتذكر مجموعة المشاكسين الذين وضعوا شريطًا لاصقًا على أفواههم من أجلي، والصبي الضخم الهادئ الذي جاء بأحد أفضل التشبيهات التي سمعتها في حياتي.

بعد ذلك عندما أخبرت طلابي أنني حصلت على لقب معلم العام على مستوى المنطقة التعليمية، سمعت صوتًا بين الصيحات والتهليل يغني «دو دو دودو دودو»، وهو اللحن الذي يتردد في ذهني حتى يومنا الحاضر.

التعرف على الطلاب

بدءًا من العام الذي درست فيه لفصل جماعة الغداء، تعهدت أمام نفسي أن أتعرف على طلابي جيدًا. فأنا أبدأ كل عام دراسي جديد بإعطاء الطلاب الواجب نفسه: «اكتب إدخالًا في دفتر يومياتك يبدأ بعبارة: «إن أسوأ تجربة مررت بها هي ...»» فهذا الواجب ينبئني بالكثير عن طلابي مقارنة بأي نشاط آخر نقوم به طوال العام. في أحد الأعوام، جاءتني إدخالات من فصل كامل تقول أغلبها ما مضمونه: «إن أسوأ تجربة مررت بها هي مشاهدة أخي يتلقى رصاصة.» فأدركت من البداية أنه سيكون عامًا صعبًا. فعملت جاهدة لإرساء الشعور بالثقة بيننا، فطلابي كانوا غاضبين ويائسين بشدة، ومرت عليَّ أيام شككت فيها في جدوى ما أقوم به.

وفي العام التالي جاءتني مجموعة مختلفة تمامًا من الطلاب. كانت إدخالاتهم تقول ما مضمونه: «إن أسوأ تجربة مررت بها هي عندما أخرجت أمي التلفزيون من غرفتي.»

أنا وفصل «جماعة الغداء» في مباراة كرة قدم أمريكية جامعية. سيرون يقف في المنتصف يردد أغنيته على الأرجح.

صدقوا أو لا تصدقوا، لم يكن من السهل التعامل مع هؤلاء الطلاب أيضًا. لأن أغلبهم لم يشعر بضرورة إقامة علاقة وثيقة مع المعلمة؛ إذ أشبع المنزل جميع احتياجاتهم، وغدت المدرسة مجرد مكان لقضاء الوقت مع الأصدقاء. لكنني تمكنت في النهاية من الوصول إلى المجموعتين، باستخدام بعض الأساليب القديمة: الفكاهة، وبعض الجنون، والقليل من «السحر».

الفصل الرابع

سبر أغوار السحر

«قد يكون أي شيء هو السبيل لتحقيق النجاح. وليس ثمة طريقة لمعرفته؛ إن الأمر أشبه ببواب يحمل مفاتيح كثيرة ويظل يجرب مفتاحًا تلو آخر حتى يجد المفتاح الملائم.»

باربرا وورنكي، ١ يناير ٢٠٠٩

مع مرور السنين أدركت جيدًا تأثير العلاقة بين المعلم وطلابه على نجاحهم في المدرسة. لكن في الوقت نفسه أيقنت أن هذه العلاقة وحدها لا تكفي. صحيح أن السيدة وورنكي اهتمت بطلابها، لكنني حظيت بالعديد من المعلمين الذين اهتموا بطلابهم ولم يكونوا مثلها. لهذا فالسؤال الذي طرح نفسه عليَّ في عامي الثالث من التدريس هو: ما الفرق بين بيئة التدريس التي يوفِّرها هؤلاء المعلمين وتلك الخاصة بالسيدة وورنكي؟

قد يغدو التدريس تجربة خانقة، سواء جرى في مقطورة قديمة، أو في فصل مجهز على أحدث طراز، أو في غرفة في قبو مثل فصلي في الصف الأول. فالمعلمون محكومون بأجراس تحدِّد وقت بداية حصصهم، ووقت انتهائها، ووقت حصولهم على الراحة. (أحيانًا أصف نفسي وزملائي بأننا أصبحنا مثل «كلاب بافلوف» لأننا نستجيب جيدًا لأصوات الأجراس.) والمقطورة المهدمة التي درست فيها خلال عامي الثالث كانت أعظم تجسيد لذلك الإحساس الخانق. فقد كان عرضها خمس أقدام وطولها نحو عشرين قدمًا. وامتدت النوافذ، التي اختلفت حالاتها، بطولها، لتكشف عن موقف السيارات، وخطوط السكك الحديدية البعيدة، ووراء ذلك أسطح منازل البلدة الصغيرة التي كنت أدرس بها. اعتدت الوقوف في الفصل والنظر إلى البرج الجرسي البعيد لمبنى مجلس البلدة، وأقول في نفسي: «العالم الحقيقي في الخارج وأنا حبيسة هنا.»

ذات يوم وأنا أقف مستغرقة في حلم يقظتي بدأت في التفكير في إحساس طلابي. يحضر طلاب المدرسة الإعدادية والثانوية ست أو سبع حصص يوميًّا، ويجلسون في مقاعد غير مريحة لساعات طويلة. ومع أن العديد من المعلمين يحاولون جعل حصصهم جذابة، فلا بد أنه من الصعب على الأطفال الحفاظ على تركيزهم واهتمامهم. إذا كان الأمر صعبًا على المعلمين الذين لديهم خبرة كبيرة في هذا الشأن، فهو حتمًا أصعب بكثير على الطلاب الصغار.

لكن عندما عدت بالذاكرة إلى أيام دراستي، وإلى غرفة القبو الخالية من النوافذ التي قضيت بها صفي الأول، تذكرتها باعتبارها مكانًا «ساحرًا»؛ فهي أكبر بكثير من مجرد أربعة حِيطان ومقاعد متداعية وسبورة. وقلت لنفسي: لا بد من وجود طريقة لبث ذلك الشعور في نفوس الطلاب. لهذا بدأت ذلك العام في تجربة بعض الأفكار؛ لجعل الفصل مكانًا يرغب الطلاب في الحضور إليه والبقاء فيه، مثل فصل السيدة وورنكي.

بعد ذلك، بعد أن تركت فصل المهارات اللغوية وأصبحت معلمة قراءة للطلاب الضعفاء، زاد اهتمامي أكثر ببيئة الفصل. وأدركت أن نجاح الطلاب في فصلي مرهون بحضورهم إلى هناك بملء إرادتهم. فالواقع أنني سآخذهم من حصص أخرى يحبونها، إذ ربما ستفوتهم حصص كرة السلة أو الموسيقى أو الرسم التي يحبونها. أضف إلى ذلك وصمة العار التي ستلازمهم دائمًا لحضورهم حصصًا كهذه. لهذا ابتكرت على مر الأيام وسائل لجعل فصلي مميزًا، وفي ظني أنها نجحت؛ إذ ذات مرة قال لي جيسون جونسون مدير المدرسة: «لم أرَ في حياتي كل هذا العدد من الطلاب يتوق لحضور حصة القراءة!»

فقلت في نفسي «أنا أحاول أن أجعل المكان ساحرًا ...»

وإليكم ما تعلمته خلال عشرين عامًا لجعل الفصل مكانًا يتمنى الطلاب البقاء فيه.

هدم الحيطان

أسعى قدر المستطاع لإخراج الطلاب من الفصول للقضاء على ذلك الشعور بأنه مكان خانق. يعلم كل المعلمين أن التعلم ليس إلا عملية اكتشاف، وثمة الكثير لاكتشافه خارج مبنى المدرسة مقارنة بما هو داخله. وبالفعل قدم لي الطلاب مقالات وصفية بديعة عن شبكات العناكب والأزهار وأنصال العشب والسُّحب، حتى إنه سيكون من الصعب الوصول إلى هذا المستوى من الإبداع بالجلوس داخل حيطان الفصل الأربعة. على سبيل المثال تمشينا العام الماضي في مسار بالغابة الموجودة خلف المدرسة، وبعد العودة كتبت

تلميذتي سافانا في دفتر يومياتها: «تدلى الغُصَيْن النحيف من غصنه كأنه كان ناعسًا.» بالطبع لم أشاهد هذا الغُصَيْن ذلك اليوم، لكنني رأيته بعينَيْ سافانا.

وهكذا أبدأ كل عام دراسي باصطحاب الطلاب خارج الفصول؛ لتدريبهم على استخدام حواسهم في الكتابة قبل الشروع في إخبارهم بتعليمات الكتابة. فأخبر الطلاب أنهم سيستخدمون كل حواسهم باستثناء حاسة النظر. ثم أقسمهم إلى مجموعات من طالبين، وأعصب عيني طالب واحد في كل مجموعة. ويتجول الشريكان معًا في فناء المدرسة وهما يستمعان إلى كل ما يدور حولهما ويشعران به. وفور عودة الجميع إلى الفصل، يصفون على الورق التجربة التي مروا بها، وفيما يلي مثال على ما كتبه طالب في الصف السابع يدعى براين:

> كنت أسير وأتحسس طريقي في فناء المدرسة. شعرت بخشونة لحاء شجرة، لكنني لم أتمكن من التركيز لأنني خشيت أن أقع أو أن أخرج إلى الشارع. زادت هذه التجربة بشكل أكبر من شعوري بالامتنان لأنني مبصر، وبدا لي أن اهتمامي بملمس اللحاء جعلني أراه بصورة مختلفة.

في وقت آخر، درَّست بمدرسة تجاور جبانة قديمة. فكنت في الخريف أصطحب طلابي إلى هناك، لاكتشاف العبارات التي نقشت منذ زمن بعيد على الشواهد العتيقة. كان الطلاب يضعون ورقة على شاهد القبر، ويمررون القلم الرصاص أو قلم التلوين الشمع جيئة وذهابًا عليه، فتنطبع الأسماء والتواريخ والنقوش الأخرى على الورقة بأسلوب ساحر. ودائمًا ما كان ينبهر طلابي ويبتهجون بظهور كلمات واضحة جدًّا على الورق، لم تكن مقروءةً على الشاهد.

في تلك الجبانة، تراصت سبعة شواهد في صف طويل، بدا أنها لأسرة كاملة تتكون من أب وأم وخمسة أبناء. اعتمدت على تلك الشواهد في نشاط متعدد التخصصات: فبدأنا بالنظر إلى التواريخ المكتوبة وحساب أعمار الأبناء عند وفاتهم، ثم ألف طلابي قصصًا ممتعة عن الأسرة وكيف كانت تعيش في القرن السابع عشر.

لطالما اعتقدت أن إخراج الطلاب من الفصل حافز كبير للتعلم، لكنها بالتأكيد ليست فكرة جديدة. فالمار بجوار أي مدرسة في الربيع سيرى الأطفال منتشرين في كل مكان تحت الشمس، يؤدون أنشطة مختلفة. شعرت في سنواتي الأولى من التدريس برغبة شديدة في الخروج مثلهم في أول يوم دافئ، حتى إنني حاولت ابتكار أنشطة تحقق الأهداف التعليمية ويمكن تأديتها خارج الفصل.

ومن الوسائل الأخرى لتفادي الشعور بالملل داخل الفصل، استخدام الأماكن الأخرى المتاحة في مبنى المدرسة كلما أمكن ذلك. فطلابي معتادون على تقديم عروض «مسرح القراء» في قاعة الاستماع؛ حيث يقرءون بصوتٍ عالٍ أجزاء من حوارات شخصيات نص درامي على الجمهور الجالس، الذي لم يكن سواي! إن سير تلك المسافة القصيرة من الفصل إلى القاعة يبهج الطلاب ويجنبهم الملل.

ذات عام بعد أن انتهى الطلاب من تسليم بحث صعب جدًّا، اصطحبتهم إلى قاعة الألعاب الرياضية. ولم أفرض عليهم سوى قاعدة واحدة. فقد كان على جميع الطلاب الوقوف داخل الدائرة المرسومة بمنتصف الملعب. وفور تحقق ذلك يمكن لأيٍّ منهم أن يفعل ما يشاء؛ يتحدث أو يصرخ أو يرقص، لكن يجب أن يبقوا داخل الدائرة. وضعت ذلك الشرط لزيادة التحدي؛ لأن الطلاب تزاحموا كمجموعةٍ من المهرجين الذين يحاولون جميعًا ركوب سيارة فولكس فاجن صغيرة. كم كان ممتعًا مشاهدة طلاب المرحلة الإعدادية هؤلاء وهم يسقطون خارج الدائرة، ثم يسعون جاهدين للعودة داخلها، وقد استمتعوا بذلك. لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق تضمنت الذهاب إلى القاعة والعودة منها، لكن عندما عدنا إلى الفصل، كان الجميع أكثر تركيزًا بعد أن أتيحت لهم الفرصة لـ «هدم الحيطان» مرة أخرى والتصرف بقليل من الحماقة.

أثناء تدريسي في المدرسة الصيفية توصلت إلى أسلوب آخر لتوسيع رقعة بيئة التعليم. ففي مناسبات عدة أثناء عملي الصيفي، درست لطلابٍ أظهروا اجتهادًا كبيرًا على مدار العام، ومع ذلك لم يتمكنوا من اجتياز اختباراتهم. ومع أننا كنا في الصيف وكان علينا البقاء داخل الفصل، فقد أخبرت الطلاب بأننا سنُدخل الصيف معنا إلى الفصل. فكتبت على أحد حيطان الفصل قصيدة (والتي كانت من وحي قصائدي في الصف الأول الابتدائي):

كل أصدقائنا بالخارج
في ذلك العالم الواسع.
ولأننا نريد قضاء وقت ممتع
فسنحضر الصيف معنا إلى الداخل.

عبارات سخيفة، أعرف ذلك. لكننا علَّقنا حول القصيدة أي شيء وكل شيء أحضره الطلاب ليذكرنا بالصيف. فجاء البعض بصور حمامات سباحة وزوارق، وأحضر آخرون أصدافًا، واختارَت مجموعةٌ أخرى أن تصنع عملها الفني بنفسها؛ فرسمت لوحاتٍ لأزهار ولمشاهد

من فصل الصيف. وأعلمت الطلاب في فصولي الصيفية أنه يحق لهم القيام من مقاعدهم في أي وقت يشاءون «للاستمتاع بالصيف»، بأخذ استراحة في آخر الفصل. وفي بعض الأوقات عندما كنت أشعر أنا أيضًا بالإحباط، كنت أتوجه إلى آخر الفصل. كنت أنتحب بصوتٍ عالٍ قائلة: «أريد قضاء الوقت بالخارج»، فيضحك الطلاب من المعلمة المجنونة التي ترفض قضاء الصيف داخل الفصل، مثلها في ذلك مثل طلابها.

حيطان تحمل رسالة

عندما بدأت أفكر في بيئة الفصل التي أريدها لطلابي، وضعت نفسي في اختبار مهم: هل أرغب في البقاء في هذا الفصل؟ إن لم أرغب في ذلك فحتمًا لن يرغب طلابي فيه. وما دمت سأبقى في فصل ما طوال اليوم فأنا أريده أن يكون مكانًا مبهجًا.

لا شيء أهم من الأساسيات بالطبع. لهذا طليت حيطان فصولي مرتين. (حتى إنني حضرت إلى المدرسة في الصيف ذات مرة لطلاء ممرات المدرسة.) ولكن بعض المعلمين مستعدون لفعل ما هو أكثر من ذلك. على سبيل المثال، بيث — معلمة علوم للصف السادس في مدرستي في أحد الأعوام — رسمت لوحة جدارية للأسماك الاستوائية غطت أحد حيطان فصلها بالكامل. وفرح طلابها فرحًا بالغًا لدى رؤية الجدارية لأول مرة في «اليوم المفتوح»، واعتبروا أنفسهم الأوفر حظًّا من بين طلاب الصف السادس في المبنى لجلوسهم في ذلك الفصل.

قد يستنكر البعض قيام المعلم بمثل تلك الأعمال الشاقة التي لا تتضمنها مهام وظيفته. لكنني أقول إن أي قدر من الاهتمام الشخصي، الذي يمكن أن أقدمه لفصلي أو مدرستي، يشعرني بأهمية وجودي هناك كل يوم. ولأنني أعرف أن كثيرًا من طلابي يعيشون في ظروف يُرثى لها، فقد أردت دائمًا توفير أفضل بيئة ممكنة لهم في المدرسة.

والطلاء الجديد ليس إلا البداية. فهناك أيضًا الزينة الجاهزة التي تثبت على حواف لوحات الإعلانات، وأدوات تزيين الفصول الأخرى المتوفرة في متاجر الأدوات التعليمية، وهي أشياء مفيدة بالرغم من ارتفاع ثمنها (من الواضح أن هناك من يربح الكثير من بيعها)، لكن المهم أنها على الأرجح تترك كبير الأثر في نفوس الطلاب.

أذكر دائمًا بإعجاب أن الزينة التي ملأت فصل السيدة وورنكي كانت من صنع يديها؛ إذ لم تكن مصانع الأدوات التعليمية متوفرة بكثرة عام ١٩٦٣. لقد علمتنا كيف نعرف الوقت بمساعدة ساعة يدوية الصنع رسمتها بوجه إنسان وذراعين ثبتتهما بمسماري

تثبيت ورق. الواقع أنني، بعد أن أخطأت في هجاء كلمة على لوحة الإعلانات التي أعددتها في عامي التدريسي الأول، استغرق الأمر مني نحو أربع سنوات قبل أن أصنع شيئًا أكثر إبداعًا من مجرد لوحة مكتوب عليها: «مرحبًا بعودتكم إلى المدرسة». والمضحك في الأمر أن لوحة الترحيب هذه ظلت معلقة حتى شهر أبريل!

لم أتوقف عند ذلك الحد. فهناك نوع آخر من أنواع الزينة أستخدمه عادة أسميته «مُلهمات القصص». إذ أغطي حائطًا كاملًا في الفصل بصور من نوع ما (والتي تختلف من عام لآخر)، وهكذا عندما يعجز الطلاب عن ابتكار أفكار للكتابة يمكنهم النظر إلى الصور المعلقة على الحائط لاستلهام الأفكار منها. على سبيل المثال أطلب من طلابي فور دخولهم إلى الفصل كل يوم أداء نشاط إحمائي. ولضمان تركيزهم أطرح عليهم سؤالًا أو اقتباسًا ليكتبوا عنه في دفاترهم. وإذا استعصت الكلمات على أحدهم فيمكنه استلهام الأفكار من الحائط.

أول مرة أطبق هذا الأسلوب، قررت أن أستخدم صورًا عديدة كنت قد جمعتها في السابق لأطفال رُضَّع جذابين. كانت هناك صور لأطفالٍ يلعبون ببكرات أوراق التنشيف، وأطفال تلطَّخت وجوههم بالطعام، وأطفال يحتضنون الجراء. لكن كانت هناك مشكلة في هذه الصور؛ فكل الرضَّع كانوا من البيض. أدركت المشكلة وأنا أعلق الصور، لكن موعد اليوم المفتوح كان قد اقترب، ولم أشأ أن أترك الحيطان عارية من الصور عند دخول أولياء الأمور. ثم نسيت الأمر حتى وقت ما في أكتوبر، عندما سألني أحد طلابي ويدعى براندون: «لماذا لم تعلقي صورة طفل أسمر يا سيدة ريجزبي؟»

تمنيت لحظتها أن تبتلعني الأرض. فبعد أن ظننت أنني تمكنت أخيرًا من مهنة التدريس شعرت ثانية بالفشل الذريع. بالطبع لم أتعمد عدم مراعاة شعور غالبية طلابي، بل لم أتمكن من العثور على صور لأطفال سُمر، أو من أصول لاتينية أو آسيوية. وهذا بالضبط ما قلته لبراندون، ووعدته بأن أستمر في البحث. وبالفعل استمررت في البحث لكنني — كما توقعت — لم أجد مرادي. لذا دخلت الفصل ذات يوم وأزلت كل الصور.

بعدها شرحت المشكلة للطلاب وطلبت منهم المساعدة. فظلوا على مدار أسابيع يحضرون لي صور أطفال مختلفة؛ صورهم وهم صغار، أو صور إخوانهم، وأبناء أعمامهم وأخوالهم، وأبناء إخوانهم وأخواتهم، أو صور أطفال جيرانهم. أصبح الفصل مهرجانًا لصور الأطفال! وقد أحب الطلاب كتابة قصص عن الأطفال كلما نظروا إلى حائط الصور.

وفي عام آخر أردت وَضْع لوحة تبرز مواهب الطلاب الشعرية. فأحضرت الأحرف المكونة لعبارة «الغوص في عالم الشعر». ثم طلبت من تشارلي — أمهر رسام في الفصل — أن يرسم صورة رائعة تتناسب مع تلك العبارة. وعلى الفور بدأ تشارلي العمل، وفي اليوم التالي حضر إلى الفصل حاملًا صورةً رائعة لضفدع، رجلاه الأماميتان ممدودتان، ويقفز من منصة قفز (موضوعة على ورقة زنبقة طافية) إلى بركة. بعد تثبيت رسم تشارلي على اللوحة، بدأت أثبت أشعار الطلبة حولها كأنها البركة التي يغوص فيها الضفدع. لأصدقكم القول، كانت هذه اللوحة نقطة تحول في محاولتي لجعل الفصل مكانًا مميزًا للطلاب ومميزًا بالطلاب. منذ تلك اللحظة توقفت عن شراء زينة الفصل من المتاجر. وبدأت أستخدم أعمال الطلاب ومشاريعهم، فنحن الذين نصمِّم حائطنا كل عام. وهذه فرصة للطلاب المبدعين لعرض أعمالهم المبتكرة.

اعتدت خلال العامَين السابقَين أن أقطع لوحة ورقية كبيرة من لفافة الورق دون مقص، لتكون حافتها غير منتظمة وخشنة، وأكتب عليها «استراتيجيات القراءة التي نستخدمها». (أنا لست فنانة ولذا فهذه فكرتي عن الفن التجريدي.) ثم يختار كل طالب حجم الورقة الذي يريده، ويقصها بشكل تجريدي أيضًا، ويكتب الاستراتيجيات عليها. بعدها نعلِّق كل الأوراق على الحائط لتشكل عملًا هائلًا من الفن التلصيقي، وأشير إليها طوال العام عندما أتحدَّث عن استراتيجيات القراءة. وقد شاهدت أيضًا الطلاب ينظرون إليها وهم يقرءون؛ إذ أصبحت بمنزلة دليل للقراءة وعمل فني في آنٍ واحد. فهي ملونة ومزينة (فضلًا عن انخفاض تكلفتها)، ولن تعثر عليها مطلقًا في متجر الأدوات التعليمية. ونظرًا لتفرُّدها وارتباطها بالفصل وطلابه، فإنها تجعل الكل يشعر بالانتماء، ويشعر أن المدرسة أصبحت بيته الثاني.

السيدة فيل

بالرغم من مرور سنوات طويلة، ما زلت عندما أغمض عينيَّ أذكر معلمتي في رياض الأطفال، السيدة فيل. كان فصلها مهرجانًا ضخمًا مبهجًا من علب الطلاء الكبيرة وأكوام الأوراق الملونة وأكواب ألوان الشمع. اعتادت كل يوم أن تبث في طلابها المحظوظين السعادة وتلهمهم، وتجعلهم يبتكرون الأشياء ويتعلمون بحق بابتهاج وحب.

ثمة موقف لن أنساه أبدًا؛ طُلب منا اختيار موضوع والحديث عنه أمام الجميع، فوقفت كاميل أمام باقي الطلاب من الأولاد والبنات، وفتحت ببطء حقيبتها الورقية بنية اللون. انبهرنا جميعًا

عندما أخرجت كاميل جناح الفراشة الذي ارتدته في حفل راقص سابق. وكان الجناح الورقي لامعًا ورائعًا. لاحظت السيدة فيل كيف ملأت الغيرة نفوس الفتيات العشر الجالسات على الأرض. لكنها لم تتحدث عن تلك المشاعر السلبية قط. فعبرت الغرفة وفتحت خزانتها ثم أخرجت سريعًا بعض الأدوات. جلست معلمتنا أمامنا وبدأت تتكلم معنا عن الرقص والتقدم في العمر، في حين أعملت المقص في مجموعة من الورق الشفاف القرنفلي والأرجواني والأزرق المائي. ثم فردت لفافات من الورق الرقيق المجعد، وأخذت تدبس أجزاءً منه هنا وهناك. وبابتسامة، نادَت أسماءنا وألبست كلًّا منا جناحًا جميلًا. بعدها اصطحبتنا إلى الخارج، فذهبنا إلى التلال الخضراء خلف المدرسة لنجري بحرية، ونرفرف بأجنحتنا.

تعلمت ذلك اليوم أمرَين؛ أن المدرسة مكان تحدث فيه أمور رائعة وساحرة، وأن المعلمين لديهم أيادٍ وقلوب خارقة.

جين موزي، معلمة الصف الأول بمدرسة بنجامين فرانكلين الابتدائية في مدينة لورنسفيل بولاية نيوجيرزي، الحاصلة على لقب معلم العام في نيوجيرزي عام ٢٠٠٩

خلق مغامرة

يرى البعض أن الفصل المزين بزينة كثيفة، قد يشتت انتباه الطلاب المصابين باضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه. وبوصفي والدة طفل مصاب بهذا الاضطراب، وبوصفي معلمة للعديد من الأطفال المصابين به، أتفهم تمامًا مخاوف هؤلاء، لكنني لم أضطر يومًا طوال مدة عملي في التدريس إلى إبعاد نظر طالب عن الحائط. بل إن ما لاحظته بدلًا من ذلك هو أثر الزينة على الطلاب الذين قالوا: «هذه الغرفة رائعة! أتمنى أن تكون فصلي!»

زرت ذات مرة فصلًا في مدرسة ابتدائية، استعانت معلمته بأوراق اللوحات لبناء «كهف» ثلاثي الأبعاد يحيط بباب الفصل. وهكذا إذا أراد أي شخص — بما في ذلك البالغون — دخول الفصل، فسيتحتم عليه النزول على ركبتَيه والمرور من باب الكهف. أما داخل الفصل فقد وُضعت أجهزة الكمبيوتر في خيام، والحيوانات في أحواض وأقفاص. سألت طالبًا عن رأيه في الفصل. قال: «إنه ليس فصلًا. بل مغامرة.» حينئذٍ تيقَّنت أنني أريد فصلي أن يكون مغامرة أيضًا.

لذا وأنا أزين فصل القراءة الخاص بي منذ عدة سنوات، كنت أحمل تلك الرغبة بداخلي. بدأت باختيار الفكرة العامة. فبما أن القراءة «تأخذك إلى مختلف الأماكن» فقد اقتبست عنوان كتاب دكتور زوس «الأماكن التي ستذهب إليها» وجعلته شعارنا. اشتريت

أحرفًا إسفنجية ملونة بارتفاع أربع بوصات، وكوَّنت بها عبارة «الأماكن التي ستذهب إليها»، وعلقتها بعرض الحائط الخلفي في الفصل. ثم غطيت الطاولات بقماشٍ ملون طُبعت عليه أحرف الهجاء، كنت قد دخلت متجرًا للأقمشة، ورأيت ذلك القماش المضلع الجميل الذي تناسبت ألوانه مع الألوان الأساسية للأحرف المستخدمة في الفصل.

بعدئذٍ زرت موقع إيباي على الإنترنت، واشتريت خيمةً حمراء وأقمتها في الفصل. في ركن آخر هيأت المكان للراحة، بوضع مقعدٍ وأرفف ومصباح للقراءة وسجادة. «ركن القراءة» الثالث ضم كرسي بحر ومنشفة ودلوًا مليئًا بالكتب. وعلقت على الحائط فوق كل ركن شريطًا كُتبت عليه عبارة مختلفة. ففوق ركن الخيمة كتبت «إلى الجبال ...»، وفوق ركن المقعد والسجادة كتبت «وعودة إلى المنزل». أما بين كرسي البحر والمنشفة، فعلقت عبارة «إلى البحر الأبيض بزبده». فالفكرة تكمن في أن القراءة إذا كانت تأخذك إلى أماكن مختلفة، فقد يأخذك الكتاب إلى الجبال، وإلى المنزل المريح، وحتى إلى المحيط.

تشوَّقت في ليلة اليوم المفتوح لمعرفة رأي طلابي الجدد في الفصل. وكان رد الفعل لا يُصدَّق! في البداية اقترب مني معلمٌ آخر، وأخبرني أن ديكور فصلي يجعل فصله يبدو مثل «غرفة بمستشفى». دخلت فصله لأجد بالطبع الحيطان البيضاء تحدق فيَّ. فعرضت عليه بعض الزينات التي تبقَّت لديَّ، وأعطيته بعض النصائح فيما يتعلَّق بكيفية صنعه لزينته الخاصة. ثم وقفت في فصلي لاستقبال الطلاب وآبائهم، وأدهشني عدد الزوار الذين دخلوا فصلي. لم تكن فصولي كبيرةً جدًّا بهذا الشكل؛ إذ كان يضمُّ كل فصل مجموعةً صغيرة من الطلاب، لكن مئات الأشخاص دخلوا فصلي ذلك اليوم. وقال الكثير منهم: «لقد سمعت عن فصلك، وأردت فقط أن أشاهده بنفسي.»

في أول يوم دراسي جاءني طالب لم أكن أدرس له، وأعطاني دلاية على شكل نجم البحر. وقال لي: «شاهدت أمي فصلك. وتريدك أن تعلقي هذه الدلاية في ركن المحيط.» أحب طلابي أيضًا الفصل. وفي أول يوم دراسي رجوني أن أدعهم يقرءون في الخيمة. فقال كيون: «أنا لا أحب القراءة، لكن إذا سمحت لي بالجلوس في الخيمة فسأقرأ، سأقرأ ...»، ثم نظر حوله في دلو الكتب واختار كتابًا، وأكمل: «سأقرأ هذا الكتاب». وهذا ما حدث بالفعل.

لكن للأسف أرغمني المسئول عن الحرائق بالمدرسة أن أتخلص من الخيمة فور بداية الدراسة، ومع هذا ما يزال الطلاب يتحدثون عنها رغم مرور عدة أعوام على إزالتها. فتلك الخيمة ساعدتني في خلق مغامرة في فصلي كما تمنيت.

شعرت ذلك العام بالفخر بفصلي، واستمتع طلابي حقًّا بالبقاء فيه، لكنني لم أتمكن قط من محاكاة ديكور أجمل فصل رأيته في حياتي، والذي كان فصل الصف الثالث الذي كانت تدرِّس له زميلتي العزيزة أليس. بدايةً، لقد وضعت أليس قفصًا زجاجيًّا بديعًا للطيور على مستوى نظر الطلاب. وقد تابع الطلاب بشغف دورة حياة تميمة حظ الفصل وهو طائر الحَسُّون المخطط الأسترالي، وشاهدوه وهو يبيض كل تسعة أشهر.

على يمين قفص الطيور، كان يوجد حوض استحمام رباعي الأرجل مصنوع من البورسلين، وهي إضافة أخرى مثيرة للاهتمام وضعتها أليس في فصل ابتدائي. امتلأ الحوض بمختلف أنواع الوسائد، وقد تشاجر الطلاب للاسترخاء فيه والقراءة. كانت أليس قد طبعت عبارة الشاعر شيل سيلفرستاين «في هذا الحوض يوجد أطفال كثيرون للغاية»، وعلقتها فوق ركن القراءة. وإلى يمين حوض الاستحمام كان يوجد كشك هاتف حقيقي، يشبه الكشك الذي يستخدمه سوبرمان لتغيير ملابسه، وهو مكان آخر يحفز الأطفال على القراءة. ترك سوبرمان نظارته في الكشك، ومسموح لأي طفل ارتداؤها وقراءة كتاب ليصبح «قارئًا خارقًا».

أضف إلى ذلك أن أليس أعدت مساحة مرتفعة — أسمتها «عِلية الجدة» — يمكن للأطفال تسلقها، والقراءة فيها بجوار دمية بحجم شخص حقيقي اسمها «الجدة»، لها ذراعان مرنتان يمكنهما احتضان الطفل. والشيء الوحيد المتبقي لتكتمل أماكن التعلم الجذابة تلك كان هو الكتب التي تراصَّت على أرفف، أسفل تلك المساحة المرتفعة.

هذا هو ما أبحث عنه لأحفز طلابي على العمل، ولأشعرهم وكأنهم «في البيت» في المدرسة؛ إذ أردت أن أنقل لهم نفس شعوري في اليوم الأول لي في فصل السيدة وورنكي.

التركيز على الطلاب

إن إشاعة جوٍّ أسري في المدرسة لهو أمرٌ مهم بالطبع؛ ليشعر الطلاب بالراحة كما لو كانوا في البيت. وقد اتضح لي أن الطلاب يكونون أكثر استعدادًا للتعلم عندما يشعُّ جوٌّ أسري في الفصل. لهذا وجدت أن السماح للطلاب بتعليق صور طفولتهم دائمًا ما يوثِّق أواصر الصلة بيننا، لكنني قرَّرت اختبار شيءٍ جديدٍ العام الماضي. أعددت صورًا ظلية لكل طالب متبعةً أسلوب معلمات المدرسة الابتدائية الفعال، وهو استخدام جهاز الإسقاط الضوئي ليقع ظل الطالب على ورقة، ثم تتبع الظل على الورقة بقلم.

بدأنا العام الدراسي — حرفيًّا، في اليوم الأول من الدراسة — بكتابة موضوع عن تاريخنا مع القراءة. ولتوضيح المطلوب من الطلاب، قرأت عليهم ما كتبته حول كيفية تعلمي القراءة في فصل السيدة وورنكي، وأنواع الكتب التي فضلت قراءتها في المرحلة الثانوية والجامعية وبعد التخرُّج. بدأ الطلاب أيضًا يكتبون عن تاريخهم مع القراءة، في الوقت الذي ناديت فيه طالبًا تلو الآخر، وأوقفته أمام جهاز الإسقاط الضوئي، وسلطت عليه الضوء، ورسمت صورةً جانبيةً ظليةً له على ورق أسود وبني. (اخترت اللونَين الأسود والبني ليتباينا مع الألوان الأساسية الغزيرة في الغرفة، وهي إحدى محاولاتي الأخرى لإضافة لمسة فنية.)

بعد تنقيح موضوعات الطلاب من كتابة الموضوعات وإعادة كتابتها من قبلهم، علقتها خارج الفصل، كل موضوع مصحوب بالصورة الظلية لكاتبه. في اليوم التالي كان الحال أشبه بمهرجان خارج الفصل. إذ اجتمع كل طلاب الصف الثامن خارج فصلي في محاولة لمعرفة صاحب كل موضوع، عبر النظر إلى الصور الظلية قبل قراءة الاسم المكتوب على الموضوع. صورتان بالذات حيرتا الجميع بما فيهم أنا؛ إنهما صورتا التوءمَين اللذين كانا في فصلي ذلك العام، جمال وجالين. حتى إن الفَتيَين أنفسهما لم يفرِّقا بين صورتَيهما.

وبعد عرض موضوعات الطلاب لبعض الوقت، أزلتها في النهاية، ووضعتها في ملفات كتابة، تمهيدًا لإعادتها للطلاب. لكن نفسي لم تطاوعني أن أضع الصور الظلية في الملفات. فنثرتها على طاولة أمامي في الفصل. ونظرت إلى صور طلابي كلهم، وشعرت برغبة في الاحتفاظ بها. وهكذا استعرت أطول سلم عثر عليه حارس المدرسة، وصعدت للصقها على السقف على جانبي فتحات الإنارة. ظلت تلك الصور طوال العام جزءًا من الفصل، وكثيرًا ما نظر إليها أصحابها وتحدثوا عنها.

السر في الألقاب

لطالما أحببت مناداة أسماء الطلاب من القائمة في أول يوم دراسي. يكون أول يوم صعبًا لأنني لا أعرف أسماء الطلاب وهناك مجال كبير لارتكاب الأخطاء. ولا شيء أسوأ من الخطأ في نطق اسم طالب بالمدرسة الإعدادية. وأكبر دليل على ذلك طالبتي السابقة تشاسيكا. فاسمها يُنطق تشاسيكا في حين يُكتب تشاسكيتا. وفي أول كل عام كانت تخطئ المعلمات في نطق اسمها، وأنا من بينهم بالطبع. وقد آلمني بشدة التعبير الذي ارتسم على وجهها

عندما أخطأت في نطق اسمها، عندما أصبحت طالبة عندي في الصف السابع، وقد اعتادت سماع الاسم الخطأ.

أخطأت مرات عديدة في نطق أسماء الطلاب، وسببت لهم الحرج بجذب انتباه الجميع إليهم. وفي أحيان أخرى لم أعلم أن الطالب معتاد على الرد عند مناداته باسم أبيه. أو أن له لقبًا لا أعلمه. وتذكرت كيف اعتاد الأساتذة أيام دراستي الجامعية مناداة كل شخص باسم عائلته، ففكرت في اتباع نفس الأسلوب في فصول المدرسة الإعدادية. وهكذا أصبحت أنادي اسم عائلة الطالب، وبدل أن يجيبني قائلًا: «هنا» أو «موجود»، يخبرني بالاسم الذي يريدني أن أناديه به.

وبالطبع أسمع أسماءً غريبةً كل عام. ففي أحد الأعوام رفع طالب صغير جدًّا رأسه وهو جالس في مقعده آخر الفصل بعد أن ناديته باسم عائلته، وأجابني: «اسمي سنوب دوجي دوج (الكلب سنوب)!»

فقلت له: «حسنًا، يا سنوب. وماذا تدعوك والدتك يا سنوب؟»

فهمس قائلًا: «ليروي.» أوه، هكذا صدق ظني أن له اسمًا تقليديًّا آخر. ولكن طوال العام كنت أنادي ذلك الصبي الصغير «سنوب بابي باب (الجرو سنوب)»؛ لأنه كان صغير الجسم جدًّا. وفي مرات أخرى ناديته «باب» فحسب. وقد أحب الاسم كثيرًا.

سرعان ما تتحول ألقاب كهذه إلى أسماء تدليل. ذات عام كنت أنادي قائمة أسماء الطلاب الجدد، وعندما ناديت اسم عائلة طالبٍ معينٍ ردَّ عليَّ قائلًا: «أنتوني». رفعت بصري ونظرت إليه، فوجدته — صدقًا — أجمل طفل أراه في حياتي. فقلت له دون تفكير: «حسنًا ألست جميلًا كالبقة الصغيرة؟» فانفجر الفصل كله ضاحكًا، وخشيت أن أكون قد أحرجت الصبي. لكنه ابتسم ابتسامة عريضة، وربَّت عدة طلاب على كتفه وهم يكرِّرون الاسم: «البقة».

بالطبع علق الاسم به. وأصبح هذا الاسم اسم الصبي بعد ذلك. الآن صار أنتوني رجلًا ناضجًا، لكنه ما زال يدعو نفسه البقة. وسيظل دائمًا البقة في نظري.

إن إطلاق ألقاب على الطلاب يجعلهم يشعرون بتفرُّدهم وبأنهم محبوبون، ويساعدني في خلق الجو الأُسْري الذي أبتغيه في فصولي. في أحد الأعوام كانت لديَّ طالبةٌ تدعى كريسي اعتادت تمشيط شعرها في الفصل باستمرار. كنت أقف في مقدمة الفصل أشرح الدرس، في حين تفرد كريسي شعرها على مكتبها، وتظل تمشطه بالفرشاة حتى أشير لها بالتوقف عن ذلك. بالطبع سرعان ما أصبح اسمها بريسي (المتأنقة) بدلًا

من كريسي. وأصبحت أطلق على نيكول اسم نيك ناك بادي واك، ولورا أسميتها لورا لو، أما ديانا الفتاة المشاغبة الضئيلة الجسم فقد أسميتها بي وي. وموريس أصبح بينات هيد، والفتاة الجميلة دياموند ستظل دائمًا تدعى دياموندز آند بيرلز. وما زلت أتلقى رسائل إلكترونية من طالبتي هوانيشا المسجلة في وثيقة ميلادها هوانيتا.

بالطبع أشعر بالامتنان دائمًا لكل «الجدَّات» في فصولي. إذ تظهر في فصولي كل عام شخصية فتاة قائدة، تتصرف وكأنها أم للجميع. لهذا أطلق على تلك الفتاة اسم «الجدة». في أول مرة أطلقت هذا الاسم على فتاة — منذ أعوام عدة — خشيت أن يكون له تأثير سلبي، لكنني سرعان ما اكتشفت أن الاسم يروق لتلك الفتيات دائمًا. كانت تشاسيكا واحدة من تلك الفتيات الجدَّات، وهو دور لعبته دومًا بابتسامةٍ عريضةٍ على وجهها.

التصرف ببعض الجنون

إن إطلاق الألقاب على التلاميذ هو الخطوة الأولى لبناء تلك العلاقات المهمة للغاية داخل الفصل. **ولكن من الخطوات الأخرى التي أقوم بها التصرف بجنون كلما سنحت الفرصة. فأحد أهدافي ألَّا يشعر طالب في فصلي بالملل ولو للحظة واحدة.**

على سبيل المثال لم أتخلَّ يومًا عن شغفي بالتشجيع، حتى بعد كل تلك السنوات الطويلة التي قضيتها في التدريس. ففور أن أتلقَّى إجابة صحيحة أو ألاحظ سلوكًا سليمًا، تجدني أرفع ساقي عاليًا في الهواء في حركة تشجيع حماسية. أول مرة فعلت ذلك أمام الفصل أصيب طلابي بالذهول والصدمة من «المرأة العجوز» التي يمكنها رفع ساقها كل هذه المسافة. ومنذ ذلك الحين وهم يرجونني أن أكرر الحركة، ويحاولون دائمًا قول الإجابة الصحيحة لأحييهم بتأدية «حركة المشجعات».

ذات مرة تفوه طالب بالكلمتين اللتين أمقتهما من طلاب المدرسة الإعدادية: «أشعر بالملل»، حينئذٍ أمام الفصل كله التفتُّ إلى الخلف، وسرت باتجاه الحائط، ثم استدرت للأمام، وتشقلبت في الهواء مرتكزة على يديَّ. وبالطبع نجحت المفاجأة في جذب انتباه الجمهور.

الملابس أيضًا يمكنها جذب الانتباه. أنا أفضل زيَّ الجنية. ولديَّ أزياء لجنية القراءة، وجنية الاختبار، وجنية التركيز. فأنا أخبِّئ جناحَين ووشاحًا وعصًا في خزانتي، وفور رؤية طالب شارد الذهن، أقول: «أوه، حان وقت إخراج جنية التركيز!» وأرتدي الزيَّ، ثم أبدأ في الرقص حول مقعد الطالب، والنقر بالعصا هنا وهناك وأنا أردِّد «ركز، ركز، ركز ...»

جنية التركيز تنقر بالعصا فوق رأس سافانا.

ذات عام أعطتني معلمة مضربًا للذباب لأستخدمه في الفصل. كان المضرب أخضر اللون يحمل زهرة ربيع زينة بيضاء كبيرة بأحد جوانبه. لم أستخدم المضرب ذا الوردة لقتل الذباب مطلقًا. بل أسميته «وردة التركيز». عندما ينشغل الطلاب بأحاديث جانبية وأنا أشرح، أمسك بوردة التركيز وأضرب بها أحد المقاعد أو السبورة أو كتابًا أو خزانة. فيفزع كل الطلاب وينفجرون في الضحك. ويعلن أحدهم حينئذٍ دائمًا: «لقد فقدَت عقلها مرة أخرى!» لكن الأهم من ذلك أنني أستحوذ على انتباه الجميع في تلك اللحظة.

ومن الوسائل التي تؤدي إلى نتائج مشابهة إصدار أصوات غريبة، والغناء (للأسف لا أجيد الغناء)، والرقص (ما أصعب حركات الرقص في المدرسة الإعدادية)، والفقرات

الكوميدية (وارتفاع الصوت عامل أساسي في نجاح ذلك). فكل هذه الوسائل تجذب الأعين نحوي في ثوانٍ معدودة. ومن الوسائل الأخرى التي أشتهر بها لجذب انتباه الفصل ربط الدروس بقصص عن كلبي، وتقليد صوت نباحه لتوضيح القصة؛ إذ سرعان ما تُوقظ تلك القصص الطلاب الشاردين في أحلام اليقظة.

مثل هذه التصرفات غير المتوقعة كفيلة بإعادة الطلاب إلى حالة التركيز، لكن دعونا لا ننسى أن الأنشطة المعتادة المتوقعة تساعد أيضًا الطلاب على إعادة تركيزهم. فمثلًا يسعد الطلاب بتكرار عبارتهم المفضلة «هذا ظُلم». وتكون إجابتي دائمًا بنفس الكلمات وهي: «الظلمة هي ما يحدث ليلًا أو بعد انقطاع الكهرباء.» بعد أسبوعين يردد الطلاب إجابتي، وسرعان ما يتوقفون تمامًا عن التذمر من الظلم.

ومن الأنشطة الأخرى القريبة إلى قلبي تخصيص أغنية للفصل. وقد وقع اختيارنا في السنوات الأخيرة الماضية على أغنية «لم يُكتب» للمغنية ناتاشا بيدنجفيلد. نبدأ بالاستماع إلى الأغنية وقراءة كلماتها معًا، ثم مناقشة معانيها. ثم أسأل طلابي عن معنى عبارة «اليوم يُسطر أول فصل في كتابك. أما الباقي فلم يُكتب بعد.» بعدها أطلب من كلٍّ منهم وضع جدولٍ زمني لحياته. والطلاب يعرفون كيفية وضع الجداول الزمنية. فقد وضع عددٌ كبيرٌ منهم الكثير منها على مدار سنوات الدراسة. لكن الجدول الزمني الذي أطلبه منهم مختلف. فهو لا يبدأ يوم ولادتهم، بل يبدأ يوم فرض تلك المهمة عليهم ويتنبأ بأحداث مستقبلهم. وهذه المهمة مهمة بالطبع، لكن أمتع شيء هو تشغيل الأغنية في أوقات منتظمة، والرقص على أنغامها وترديد كلماتها. ولم يحدث أن طلب أحدٌ من خارج الفصل خفض الصوت سوى مرةٍ واحدة.

أما إذا أردت أن أتصرف بجنون حقيقي فأبدأ في قذف الأشياء. أحيانًا أقذف الحلوى عشوائيًّا. (أعلم أن البعض قد يرى الحلوى وبسكويت الدجاج الذي أحضره معي إلى الفصل بشكل منتظم، والبيتزا التي أطلبها مأكولات تشجع الطلاب — والمعلمين — على البدانة، لكنني أعتقد أن الرقص يوازن ذلك.) لكن أفضل شيء أقذفه هو «القلادة الذكية». ففي أحد الأعوام وزع علينا شخص في إحدى الحفلات قلائد من الخرز الأخضر كالتي تستخدم في الأعياد. ونظرًا لأن حيطان المدرسة مطلية باللون الأخضر فقد أحضرت القلائد معي، وعلقتها في أرجاء الفصل لتزيينه. ذلك اليوم أجاب طالب إجابة رائعة ومتكاملة، من دقتها بدأت أنظر حولي بحثًا عن مكافأة أقدمها له.

وعلى الفور أمسكت بقلادة من القلائد المعلقة على الحائط، وقلت له: «مكافأتك أن ترتدي هذه القلادة الذكية!» بدا الأمر كما لو أنني أعطيته مليون دولار! لكن منذ ذلك

الحين وكل طالب في الفصل يطمح في ارتداء إحدى تلك القلائد، حتى إن بعض الطلاب كانوا يأتون من فصول أخرى ويقولون: «أيمكنني الحصول على بعض تلك القلائد؟»

بوجه عام، يعيد الطلاب القلائد بنهاية الحصة، وأعلقها على خطاف فوق السبورة استعدادًا لمكافأة الإجابات الصحيحة في الحصة التالية. لكن يحدث من آنٍ لآخر أن يُخطئ طالبٌ وينسى تسليم قلادته ويخرج بها، وعلمت من معلمات أخريات أن قلاداتي تسبب أحيانًا مشاكل في فصولهن. إذ يبدو أن التلاميذ يطلبون من أصدقائهم ارتداء القلادات، وهم يتنقلون بها بين الفصول. وذات مرة عادت قلادة في اليوم التالي فضية اللون بعد غسلها بطريق الخطأ في الغسالة. ومنذ ذلك الحين تلهف كل التلاميذ على الحصول على القلادة الفضية، حتى ذهبتُ إلى متجر أدوات الحفلات واشتريت كل الألوان المتاحة. كان من الأفضل منح الطلاب فرصة الاختيار بدلًا من سماعهم يتوسلون.

الحصول على مؤشر

لعبت الألوان دورًا كبيرًا في إضفاء السحر على فصلي بشكل آخر أيضًا، وحدث ذلك بعض الشيء بالصدفة. منذ بداية عملي في مهنة التدريس وبعد الدرس الذي تعلمته من موت والد كيرتس، أصبحت أفتخر بمراعاتي لمختلف ظروف الطلاب ومشكلاتهم. لكنني تعرضت لموقف العام الماضي احتجت فيه لمراجعة ذلك الدرس الذي تعلمته.

ذات يوم دخل الفصل طالب يدعى جايمي وهو مضطرب جدًّا. وشاهدته وهو يضرب كل شيء في متناول يده على مكتبه مثل كوب الأقلام، ولوح تزلج لعبة أخرجه من جيبه ومشبك الأوراق الخاص به الذي ظل يفتحه ويغلقه، مُصدرًا صوت طقطقة مزعجًا. لم أتمكَّن من حمله على التركيز، إذ رفض الإنصات إلى شرحي. وظل يقهقه ويتحرك، ويتأرجح في مقعده للأمام والخلف لمدة ثلاثين دقيقة متواصلة. حذرته عدة مرات، واستخدمت جميع الوسائل لجذب انتباهه. وفي النهاية لجأت إلى «الملاذ الأخير». هددته بالاتصال بوالدته.

حرك رأسه بسرعة وصرخ فيَّ قائلًا: «لن تجديها!!» فظننت أنه يعني أنها في العمل، واتصلت بمنزله بالرغم من ذلك. رد والده على الهاتف وقاطع حديثي المتدفق قائلًا: «معذرة على المقاطعة، لكن لا بد أن أخبركِ أن والدة جايمي رحلَت ليلة أمس.»

انتابني حزن شديد، وأدركت أن سلوك جايمي مبرر تمامًا. بعد كل هذه السنوات ظننت نفسي ماهرة في معرفة ما إذا كان أحد طلابي لديه مشكلة أم لا، لكن من الممكن

أن يكون من الصعب على المعلم أن يرى الفرق بين مشاغبات المراهق المعتادة، والصدمات التي تغير حياة الطفل. فنحن بشر في النهاية ولا يمكننا معرفة كل شيء. لذا في ذلك اليوم، بعد الخطأ الفادح الذي ارتكبته بحق جايمي، ابتكرت طريقة غيرت الفصل بعدها؛ ألا وهي بطاقات الحالة المزاجية.

ذهبت إلى متجر للأدوات المكتبية وابتعت أكوابًا معدنية صغيرة بعدد المقاعد في فصلي. كانت الأكواب مصممة لتحمل مشابك الورق أو دبابيس الرسم، لكنها استُخدمت في فصلي لتحمل بطاقات الحالة المزاجية. فكل كوب يحمل خمس ورقات مربعة الشكل ومختلفة اللون، كل لون منها يمثل حالة مزاجية:

الأحمر يعني «أنا غاضب، فتجنبوني.»
البرتقالي يعني «أنا منزعج أو مضطرب.»
الأزرق يعني «أنا حزين.»
البني يعني «أشعر بالملل.»
الأخضر (أفضل بطاقة) يعني «أنا سعيد واليوم رائع!»

أحب الطلاب تلك البطاقات. وإذا حضر أحدهم حزينًا بسبب أمر حدث في البيت أو في حصة سابقة، نعلم جميعًا أننا يجب أن نتركه وشأنه لبعض الوقت. في بعض الأيام أدخل الفصل لأجد طالبًا يضع الخمس بطاقات على المكتب. فأقول له: «لا يمكنك أن تشعر بكل هذه الأحاسيس في آنٍ واحد!» لكنني أتذكَّر حينئذٍ أنني أتعامل مع طلاب في المرحلة الإعدادية.

طلب مني طلابي إجراء تغييرين. أولهما: أن أضيف بطاقة وردية اللون تشير إلى الوقوع في الحب، وهو طلب نفذته وأنا أضحك. وثانيهما: أن أحدد حالتي المزاجية بشكل ما على السبورة. لذا صنعت لافتة صغيرة كتبت عليها «حالة المعلمة ...» وكل يوم أضع بطاقة خضراء على السبورة بجوار اللافتة. لكني في بعض الأحيان أداعب الطلاب بأن أتجه نحو السبورة، وأضع البطاقة الحمراء. فيقولون: «أوه، إنها غاضبة الآن!»، فأرسم على وجهي تعابير الانزعاج.

بعد أن اعتدنا استخدام بطاقات الحالة المزاجية، حدث موقفٌ آخر ترك أثرًا مهمًّا في طلاب فصلي. فكلما كان يضع طالب البطاقة الحمراء على مكتبه، كنت أسأله إن كان يفضل الحديث عما يغضبه. والآن أدركت أنهم يتوقون بشكل شبه دائم لذلك. في البداية أسمينا هذه النقاشات «المشكلات»، ثم أسمينا الوقت الذي كنا نمارسها فيه وقت

«المشكلات والاحتفالات». وهكذا نبدأ كل حصة بوقت المشكلات والاحتفالات. فأستمع إلى مشكلات الطلاب التي تتعلق بشعورهم بالإحباط في المنزل أو في حصص أخرى، ثم أستمع إلى تلاميذي من الأبطال الرياضيين عن عدد النقاط التي أحرزوها في مسابقات اليوم السابق. غدت هذه الممارسة من أهم أنشطة يومي؛ فهي تساعدني على الاقتراب من طلابي، وتساعدهم على التنفيس عن غضبهم والاحتفال في بيئة آمنة.

تعد هذه المناقشات إحدى الطرق التي تجعل فصلي مكانًا أفضل للتعلم. فالطلاب يعلمون أنني سأبذل ما بوسعي لأضمن نجاحهم. إنهم لا يعلمون ذلك فحسب، بل يقرءونه كل يوم. فأنا أعلِّق عبارة «مهما تطلَّب الأمر» في مقدمة الفصل بأحرف ارتفاعها يزيد عن خمس بوصات. وأخبر طلابي أنني مستعدة للقيام بأي شيء لمساعدتهم في تحقيق النجاح، حتى إن تطلَّب ذلك الوقوف على رأسي! (لحسن الحظ لم يطلب أحدهم مني ذلك حتى الآن.) وبجانب تلك العبارة علقت أشياء أخرى. فهناك صورة ضخمة لإصبع تشير إلى الفصل. وبجوارها كُتبت عبارة «أنا أثق بكم». وطلابي يعلمون ذلك جيدًا.

وبمرور الوقت، بدأت أنا أيضًا أثق في قدراتي كمعلمة. وتمكنت أخيرًا من رؤية المقومات التي رأتها السيدة وورنكي فيَّ منذ أعوام طويلة. وكلما تركت أثرًا في حياة طلابي، تذكرت عامي الأول في المدرسة الابتدائية، في محاولة لأن أنتهج نهج تلك المعلمة الملهِمة. إنني أجرِّب كل فكرة تخطر على بالي — كالمفاتيح التي تحدثت عنها السيدة وورنكي — وأبذل كلَّ ما بوسعي لأكون معلمةً صالحة، تفتخر بها معلمتي في الصف الأول.

الفصل الخامس

البحث عن الحافز للاستمرار

«قفي لحظة والتقطي أنفاسك ...»

باربرا وورنكي، ٥ أبريل ٢٠٠٩

التدريس مهنة شاقة. فالمتغيرات في حياة المعلم اليومية أكثر بكثير منها في أي مهنة أخرى. فسماع إعلان على نظام الاتصال الداخلي، أو رؤية طالبٍ الثلجَ يتساقط، قد يقلب الفصل كله رأسًا على عقب. وإن حاول المعلم تغيير الجدول اليومي للأنشطة لحضور اجتماع مثلًا، يُصاب الطلاب الهادئون بالضيق ويصعب التعامل معهم. كما أن المعلمين يغادرون المدرسة كل يوم وهم في قمة الإرهاق، وعلى الأرجح ينتظرهم مزيد من العمل في المنزل؛ مثل تصحيح الاختبارات وتحضير الدروس. فكيف تواتينا القوة لنواصل كل يوم، لنكمل المسيرة ونعود كل يوم إلى المدرسة؟

والأمر أصعب على المعلمين الجدد؛ لأنهم لم تُواتِهم الفرص بعدُ لرؤية الأثر الذي يتركونه في نفوس طلابهم. فتلك الفرص لا تأتي إلا بعد قضاء أعوام في التدريس في كثير من الأحيان. **لهذا على كل معلم أن يستمد حوافزه على الاستمرار في العمل من التفاصيل الصغيرة؛ من الأنشطة اليومية. وأنا أُومِن أنني كلما قدمت لطلابي ولم أبخل عليهم، زاد المقابل المعنوي الذي أحصل عليه. فقد نسيت كل متاعبي عندما ابتسم هوزيه للمرة الأولى في سعادة لأنه بدأ يتعلم بعض الكلمات الإنجليزية، وعندما صنع لي تيفين بطاقة معايدة في حصة الرسم بمناسبة عيد الحب، وعندما أحاطتني ديانا بذراعيها كلما دخلت الفصل.**

عندما توفي والدي تلقيت من طلابي باقة زهور وطبقًا كبيرًا مملوءًا بالطعام. وعلمت فيما بعد أن طالبتي تيريس جابت مبنى المدرسة بأكمله لتجمع النقود اللازمة في برطمان مخلل. وفي الوقت نفسه رسم أنطونيو — رسام الفصل — لوحة بالألوان المائية أسماها «وداعًا للأحزان». وحضرت كِيا إلى دار الجنازات يوم عيد ميلادها الثالث عشر لتواسي أسرتي، وتدعوني إلى حفل عيد ميلادها في مطعم دينيز. هذه بعض الأمثلة على المكافآت التي قد لا تتوفر في مهنة أخرى، وهي أشياء تعادل بالتأكيد الإرهاق والتعب اللذين أشعر بهما في ليالٍ كثيرة وأنا عائدة إلى منزلي.

مهما تطلب الأمر

يؤمن بعض المعلمين بضرورة ترك العمل في مكان العمل وعدم اصطحابه إلى المنزل، لكنني لا أوافقهم الرأي. أذكر أنه قد دنت مني زميلة لها هذا الرأي، وأنا متجهة إلى سيارتي ذات يوم بعد انتهاء اليوم الدراسي. نظرت إلى حقيبتي المليئة بالأوراق وقالت: «اعتدت أن أفعل ذلك أيضًا، لكنني توقفت.» أنا أعتبر فصلي وطلابي جزءًا مني. فأشعر برابط قوي مع طلابي يوم الإثنين، بعدما أكون قد وضعت مقالاتهم أمامي عصر يوم الأحد وقرأتها. وكثيرًا ما أخبرهم أنني أشعر كأنما قضيت عطلة نهاية الأسبوع معهم! بالطبع تجدني — ككثير من المعلمين — مستلقية ليلًا على الفراش أفكر في وسيلة لمساعدة طالب معين في أمر ما، وكم من مرة تقلبت في الفراش قلقًا على طالب يمر بظروف صعبة. قد يكون قلقي زائدًا أحيانًا، لكنه قد لا يكون كافيًا في أحيان أخرى.

انضم جوي — وهو طالب في الصف السابع — إلى فصلي في منتصف العام الدراسي. عندما دخل الفصل ذلك اليوم لم تفضح ابتسامته المشرقة الصعاب التي عاناها في حياته. ثم علمت أن مسئولي الشئون الاجتماعية أبعدوه عن والدته، وتركوه في رعاية خالته التي تعيش بالقرب من مدرستنا.

بعد مرور أسبوع تغيب عن المدرسة عدة أيام؛ قضاها في المستشفى. ونظرًا لقلقي الشديد اتصلت لأطمئن عليه، فعلمت أن معدته لم تتحمل الوجبات المتوازنة من اللحم والخضراوات التي قدمتها له خالته؛ نتيجة لعدم تناوله أي طعام في السابق بخلاف رقائق البطاطس.

بعد عودة جوي إلى الفصل حاولت أن أجعله يشعر بالانتماء إلى شيء جديد، ويدرك أهمية التعليم في مستقبله. عملت أيضًا جاهدة على أن يلحق جوي بزملائه ويتعلم ما فاته

في الفصل الدراسي الأول. وقد عمل الطفل بجد فعلًا، لكن المجهود كان كبيرًا على كلينا؛ إذ لم يكن جوي قد تعلم الأساسيات التي تؤهله للنجاح في الصف السابع. عملنا معًا صباحًا في وقت تحضيري للدروس، وعملنا بعد انتهاء اليوم الدراسي كلما أتيحت له وسيلة لعودة آمنة للمنزل.

وسرعان ما تكيَّف جوي مع تغير المدرسة وحظي بأصدقاء عدة. ما زلت أذكره وهو واقف في ملعب كرة القدم، حيث قضينا أحيانًا وقت الراحة، كانت الابتسامة لا تفارقه وهو يركض بحُريةٍ لم يستمتع بها من قبل. أما في أوقاتٍ أخرى، فكان من الواضح أن تفكيره كان منصبًّا على أمرٍ واحد، هو العودة إلى المنزل لرؤية والدته. كان يتحدَّث عنها دائمًا، وحاولت أن أوضح له أن الابتعاد عنها قليلًا قد يكون أفضل، حتى تتحسَّن أحوالها وأحواله.

اعتدت أن أدرِّس لجوي الحصة الأولى، وذات يومٍ في الحصة الأخيرة وجدته يدقُّ على باب فصلي. وأول شيء خطر ببالي أنه يود سؤالي عن الواجب. ولما كان الطلاب يخضعون لاختبار توجهت نحو الباب بهدوء.

قال لي بعبارة حاسمة: «حضرت لأبلغك أنني لن أحضر إلى المدرسة بعد اليوم.»

فسألته وأنا أحاول إخفاء قلقي: «هل ستعود للإقامة مع والدتك يا جوي؟»

فأجابني: «لا.» وأضاف بصوتٍ خالٍ من أي إحساس: «بل سأقتل نفسي عندما أعود اليوم إلى المنزل.»

فاجتاحني على الفور شعور مفاجئ بالذعر، وتسارعت دقات قلبي. كنت قد قرأت في السابق أن الأطفال الذين يتحدَّثون عن الانتحار بشكل درامي إنما يحاولون جذب الانتباه إليهم، ومع أنهم يستحقون بلا شكٍّ كل الاهتمام والرعاية الممكنَين، فإن أولئك الذين يتحدثون عن الانتحار بجديةٍ تامةٍ ودون أي انفعال، على الأرجح ينفِّذون تهديدهم وينتحرون بالفعل. الواقع أن هذا الصبي لم يكن يمزح مطلقًا. إذ تحدث عن الانتحار كأنه الحل الوحيد المتاح أمامه. ألقيت نظرةً على الطلاب في فصلي فوجدتهم يعملون في هدوء، ثم نظرت إلى جوي وأنا أفكر كيف أتصرف. لم تكن الفصول مزودةً بهواتف في ذلك الحين، لكن مكتب الأخصائية الاجتماعية كان في آخر الرواق؛ لذا أمسكت بذراع جوي وذهبت به إلى هناك.

شرحت لها الموقف وتركت جوي بصحبتها، ثم عدت إلى فصلي وجسدي كله ينتفض.

وفور انطلاق جرس انتهاء الحصة كانت الأخصائية تقف عند باب فصلي، وأخبرتني أن مسئول إنفاذ القانون بالمدرسة سيصطحب جوي إلى المستشفى. ودون تردُّد قلت

فورًا: «سأذهب معه»، وهُرعت إلى بوابة المدرسة الرئيسية في اللحظة التي انطلقت فيها سيارة المسئول تاركة موقف السيارات. فقفزت في سيارتي وتبعتهما إلى قسم الطوارئ، وكنت أول شخص يراه جوي عند نزوله من السيارة. وأعلمت المسئول أنني سأبقى مع جوي حتى حضور خالته.

سرت مع جوي حتى وصلنا إلى ممرضة الاستقبال التي بدأت تطرح عليه الأسئلة المعتادة: «هل تشكو من الحساسية؟ هل أنت مصاب بداء السكري؟»

ثم سألته: «هل لديك نزعة انتحارية؟»

فنظر إليَّ جوي بتساؤل. فأدركت أنه لا يدرك معنى السؤال.

فقلت له بهدوء: «إنها تسألك هل تريد قتل نفسك يا جوي؟»

فنظر إليها وأجاب: «أوه. نعم»، وكأنما كانت إجابته عادية.

هبَّت الممرضة واقفة واصطحبتنا على عجل إلى «غرفة مطاطية». كنت قد سمعت عن تلك الغرف من قبل، لكنني لم أعلم أنها موجودة بالفعل. اكتست أرضية الغرفة بنسيجٍ مطاطي مبطن فاتح اللون، وكانت الحيطان ناعمة الملمس ومطاطية أيضًا، وبالطبع كانت المائدة والمقاعد مصنوعةً من المطاط ومثبتة في الأرض. جلسنا هناك صامتين عدة دقائق. ثم تحدَّث جوي. وسألني: «ماذا سيفعلون معي؟»

فأجبته بصوت مرتعش: «سيساعدونك يا جوي.»

ثم لمحت شيئًا. رأيت دمعة صغيرة تنزل من عينه وتنساب على خده. تلتها دمعة أخرى. وهذا هو كل ما تطلبه الأمر. فسرعان ما أجهش بالبكاء، وبكيت أنا كذلك إلى جواره. جلسنا على الأرضية الإسفنجية، وأخذت أضمه إلى صدري وأتمايل به للأمام والخلف، وهو يبكي على والدته. **فكرت حينئذٍ أن برنامج إعداد المعلمين لم يهيئني للحظة كهذه، لكنني تيقنت أنني في المكان المناسب.**

عند حضور خالة جوي خرجت بضع لحظات لإجراء الترتيبات اللازمة لإعادة أبنائي من المدرسة إلى المنزل. ولدى عودتي طلب مني العاملون بالمستشفى الذهاب مع جوي وخالته إلى عنبر الحالات النفسية. وعلمت في الطريق أنه سيبقى في العنبر عشرة أيام مع منع الزيارات عنه، ولن أتمكن أنا أو أفراد أسرته من التحدث إليه حتى انتهاء كل التقييمات النفسية. كانت واحدة من أسوأ التجارب التي خضتها في حياتي أن أسيرَ في ذلك الممر المظلم الذي بدا أنه لا ينتهي، وأمرَّ عبر عددٍ من الأبواب المفتوحة التي أغلقت بقوة بعد مرورنا، تاركًا جوي وحده في ذلك المكان الذي يستحيل الوصول إليه. ظللت أبكي طوال الطريق إلى المنزل.

بعد عشرة أيام، سعدت سعادةً غامرةً عندما رأيت جوي يتقاذف الكرة مع بعض رفاقه في الفصل قبل موعد بَدْء المدرسة. وسألته عما إذا كان يشعر بتحسن. فقال: «قليلًا»، وأخبرني عن مضادات الاكتئاب التي من شأنها أن تساعده على التكيف مع المتغيرات العديدة في حياته. وابتسم لي ابتسامته العريضة التي تكشف كل أسنانه، ثم ألقى الكرة إلى أصدقائه، وتنفست الصُّعَداء لأول مرةٍ بعد أسبوعَين من القلق.

عاد جوي للإقامة مع والدته قبل انتهاء العام الدراسي، وانقطعت علاقتنا، لكنني لم أنسَ قطُّ ما حدث. ومع مرور السنين حكيت قصته للكثيرين، وأخبرني بعضهم أن ذهابي إلى المستشفى معه أكثر بكثير مما هو مطلوب مني بوصفي معلمته. أما أنا فأعتبرها تجربة غيرت حياتي؛ إذ أصبحت معلمة أفضل بعد ذهابي معه. وبالرغم من أنني لا أستطيع التحكم فيما يحدث للطلاب في حياتهم العائلية، فقد تعهدت تلك الليلة أن أمنح طلابي كل دقيقة من وقتي أقضيها معهم؛ لأحول دون شعورهم باليأس الذي شعر به جوي. أذكر عندما كنت جالسةً في المستشفى على الأرضية الإسفنجية لتلك الغرفة، حينئذٍ فقط وُلدت عبارة «مهما تطلب الأمر». لقد قررت أن أتحلَّى بصفات «المعلم» بكل ما تحمل الكلمة من معنًى، وهذا يعني أن أبذل كل ما في طاقتي من أجل صالح الطلاب. وهذا ما أكافح كل يوم لتحقيقه.

الآنسة ديهارت

أذكر أنني كنت أجلس في فصل رياض الأطفال، أشعر بالحماس والنشاط والتشويق والرغبة في أن أصبح مثل المعلمة؛ لأنها كانت تهتم بنا. كانت هذه أول مرة تراودني فكرة العمل في التدريس. عُدت إلى المنزل ولعبت دور المعلمة بمساعدة سبورتي الصغيرة. وبدأت ألاحظ أن الطلاب الآخرين كانوا يتقنون القراءة بسرعةٍ وأنا أجاهد لتعلم أصوات الحروف.

واجهت صعوبة في تعلم القراءة في الصف الأول والثاني والثالث؛ صحيح أنني تعلمت القليل من الكلمات البسيطة لكنني لم أتمكن من القراءة. وحينما كان زملائي يقضون وقتهم في الفصل في تصفح الكتب، كنت أجلس في مكاني أبكي. إذ اعتاد المعلمون تجاهلي والعمل مع الطلاب الآخرين الذين يحرزون تقدمًا. إنه شعور مدمر أن تكون الطالب الوحيد الذي يتجاهله المعلم.

وفي الصف الرابع قابلت الآنسة ديهارت. إنها لم تكن كأي معلمة أخرى رأيتها من قبل. فقد آمنَت بقدراتي. لأول مرة في حياتي وأنا طفل صغير تثق معلمة أنني أستطيع تعلم القراءة. لقد بذلت الآنسة ديهارت معي مجهودًا أكثر مما يجب عليها. عملنا معًا لمدة شهرين في الإجازة الصيفية لهذا العام. وظلت خلالهما تشجعني وتدفعني للأمام. وأخيرًا، وبعد شهرين من العمل، تمكنت من

قراءة أول كلمة لي وهي «أقحوان». وأنا أقرأ الكلمة اغرورقت عيناي بالدموع، وأيقنت أنها محقة: إذ يمكنني تعلم القراءة. أدركت حينئذٍ أنني ما دمت قادرة على قراءة كلمة «أقحوان»، فأنا قادرة على قراءة أي شيء. كم شعرت بالراحة في تلك اللحظة، والفضل كله يعود لإيمان الآنسة ديهارت بي وعملها معي.

ستيفاني دويل، معلمة التاريخ للصف السادس، بمدرسة جيمس بريكنريدج الإعدادية، بمدينة رونوك بولاية فرجينيا، الحاصلة على لقب معلم العام في فرجينيا عام ٢٠٠٩

توفير الوقت اللازم

من بين الأشياء المهمة التي أفعلها الالتزام بمنح مدرستي وفصلي وطلابي الوقت اللازم لأداء عملي على أكمل وجه. فأنا أحضر مباريات دوري الصغار وسباقات الدراجات البخارية وغيرها، في محاولةٍ لدعم طلابي وعائلاتهم. وأحيانًا أتحدَّث هاتفيًا بالساعات مع ولي أمر يمر بحالة طلاق صعبة. أضف إلى ذلك أنني أحاول دائمًا الذهاب إلى المدرسة في أبكر وقت ممكن. فالوصول إلى المدرسة قبل الموعد المحدد بعشرين إلى ثلاثين دقيقة؛ ضرورةٌ لا غنى عنها في نظري. إذ أجد الوقت لأفكر بهدوء في يومي، وأنشئ نسخًا من كل الأوراق المهمة دون الاضطرار لانتظار دوري في استخدام آلة التصوير.

بعد نسخ الأوراق وكتابة قائمةٍ بأنشطة اليوم وأهدافه على السبورة وتهيئة الفصل لاستقبال الطلاب، يتوفَّر لديَّ بعض الوقت للخوض في المحادثات الصباحية مع زملائي (فقد لا تُتاح تلك الفرصة حتى انتهاء اليوم الدراسي) وللتواصل مع طلابي الذين يبدءون في التوافد. لا شيء يضاهي تلك المحادثات في الصباح الباكر، بعد نزول الطلاب من حافلاتهم استعدادًا لبَدْء يومٍ جديد.

وحتى لا يظن أحدٌ أنني أتباهى بنفسي، دعوني أوضح أنني أدرك معنى أن يتعرَّض المرء لـ «ظروف صعبة». عندما كان ابني ويل في عامه الأخير بالمدرسة الثانوية، كنت أصل كل صباح إلى موقف سيارات المدرسة متأخرة. السبب أنني إذا لم أتأكَّد بنفسي من ركوب ويل حافلة مدرسته فإنه لا يذهب. ولا يرجع ذلك إلى أنه فتًى مشاغب، بل إلى أنه كان يغفو سريعًا؛ فكان يغفو في حوض الاستحمام ويغفو على مائدة الإفطار. باختصار كان يغفو على أي شيء مسطح يجده أمامه. (لقد اعترف لي منذ عهد قريب أنه كان يسهر في عامه الأخير بالمدرسة الثانوية حتى منتصف الليل يتمرن على مهارة جديدة؛ هي إرسال

الرسائل النصية، وهذا جعله يغفو دائمًا في الصباح في حوض الاستحمام.) أعني أنني أدرك صعوبة الوصول إلى المدرسة مبكرًا في بعض الأحيان. لكنني اكتشفت خلال سنوات عملي في التدريس أنني كلما ذهبت إلى المدرسة مبكرًا، كان اليوم الدراسي أفضل.

وتنطبق نفس القاعدة على موعد انتهاء اليوم الدراسي. عملت ذات مرة في مدرسة بها مجموعة أطلق عليها بعضنا «مجموعة الثالثة والنصف». فكل يوم في الثالثة والنصف كانت تتوجه تلك المجموعة من المعلمات إلى موقف حافلات المدرسة (إذا كن مسئولات عن ضمان سلامة الطلاب المغادرين) وهن يحملن حقائبهن وكتبهن. لم أفهم يومًا ذلك التصرف. كنت أنظر لزميلاتي الواقفات في ساحة الانتظار وهن مستعدات للمغادرة الساعة الثالثة والنصف، وأفكر في فصلي الذي تركته للتو والفوضى التي سأجده فيها عندما أعود. كيف تستطيع هؤلاء المعلمات إنهاء عملهن وتَرْك الفصل والاستعداد لمغادرة المبنى في ذلك الوقت المبكر؟ ألسْنَ مسئولات عن فصولهن؟

أما أنا، فأفضِّل البقاء في الفصل بعد انتهاء اليوم الدراسي، أصحِّح الاختبارات وأعدُّ الدروس، وأرتِّب الفصل وأستعدُّ لليوم التالي. أضِف إلى ذلك أن البقاء بعد انتهاء اليوم الدراسي يوفِّر فرصةً رائعةً للتواصل مع الزملاء. ما أَجْمل أن يعمل المرء بين أصدقائه! وعلى المرء أن يحافظ على تلك الصداقة. في رأيي البقاء في المدرسة والتواصل مع الزملاء من أفضل أنشطة اليوم. ففي ذلك الوقت، يمكننا مناقشة الأمور الشخصية؛ إذ نكون بعيدين عن طلابنا، بحيث نستطيع التحدث عن عائلاتنا وأطفالنا واهتماماتنا خارج المدرسة. وأكثر ما يمتعني هو قضاء دقائق بجانب زملائي عند آلة تصوير الورق، أو في طابور الغداء، أستمع خلالها إلى قصص زملائي عما صادفوه خلال اليوم الدراسي، وقضاء الجزء الأكبر من اليوم في الفصول مع طلابي.

وهذه العلاقات لها أهمية أخرى كذلك. فنحن نعلِّم نفس الطلاب. ونسعى لتحقيق نفس الأهداف. فمن الضروري أن نجد الوقت لنتحدث معًا. في بداية عملي في التدريس كان الوضع المعتاد أن تجد كل معلم يغلق بابه عليه، ولا يتعاون مع غيره من المعلمين. أما الآن فقد بتنا نعرف أن التخطيط المشترك يحسِّن عملية التدريس، وأن الدعم الذي يقدمه المجتمع المهني الذي أنشأناه عامل أساسي من عوامل نجاحنا جميعًا. إن تلك المناقشاتِ العفوية غير المخطط لها، التي تبدأ بعد انتهاء اليوم الدراسي في موقف الحافلات ومكان انتظار السيارات، تجعلنا أكثر من زملاء. فهي تجعلنا أصدقاء.

أستمتع أيضًا بالتجول في المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي لأتابع ما يفعله طلابي. فلا شيء أمتع من تصحيح الاختبارات على مقاعد الملعب في يوم خريفي دافئ أثناء موسم

كرة القدم. فبدلًا من تركيز طلابي مع مدربيهم، تجدهم دائمًا يلوحون لي بحماس وأنا جالسة هناك، وكأنني لم أكن بصحبتهم في الفصل قبل ثلاثين دقيقة! أُومِن أن التقاء المعلمين والطلاب خارج الفصل بين الحين والآخر؛ أمرٌ جيد للطرفين.

عدم الاستسلام

أمنح مدرستي وطلابي قدرًا كبيرًا من وقتي وجهدي، لكنني لست «المرأة الخارقة». أنا شخص عادي تمر به أحيانًا أيام سيئة كغيره من الأشخاص. في أحد الأعوام كان لديَّ طالبٌ يعرف تمامًا كيف يُثير غضبي. فكان يشكِّك في جدوى كل واجب أفرضه على الفصل، ولم ينصع لأوامري. اشتبكنا ذات مرة في جدال وبدأت أنزعج منه بشدة. ثم قلت له في النهاية: «أنت تعرف تمامًا كيف تغضبني يا كوري.» فوقف كوري بجوار مقعده، ومد ذراعه تجاهي على نحو درامي يذكر بأداء فريق «ذا سوبريمز» في أغنية «توقف باسم الحب» وقال ببطء: «تغضبني!» وكرر تلك الإشارة ست مرات. وفي كل مرة كنت أنادي اسمه بهدوء، مع أن غضبي كان يزيد أكثر فأكثر.

بعد المرة السادسة التقط كوري كتابًا كان موجودًا فوق طاولته وألقاه تجاهي. فوقع الكتاب على مسافة ثلاث أقدام تقريبًا مني وانزلق على الأرض نحوي، وكوري يقول «تغضبني»، واستمر يلقي الكتب الموجودة على مكتبه وأنا أنهره مرة بعد أخرى بصوتٍ أعلى. أما باقي الطلاب في الفصل، فقد تابعوا ما يحدث مذهولين من سلوك كوري، وأخيرًا توجهت نحوه وأمسكت ذراعه، واقتدته إلى مكتب مدير المدرسة. تركته هناك وعدت إلى فصلي — وأنا أنتفض من الغضب — لأكتب أمرًا بإحالته إلى التأديب.

يظل شعار «مهما تطلب الأمر» في ذهني دائمًا، وإن كنت على خلاف مع أحد الطلاب كما حدث هنا. ولأنني شهدت مواقف مشابهة تحدث لمعلمين آخرين، أعلم أنهم يتجاوزون الموقف. أما أنا فإن مثل هذه المواجهات تقض مضجعي، وتسلبني النوم ليلًا، فأظل أفكر فيما وجب عليَّ فعله للتعامل مع الموقف لينتهي نهاية مختلفة.

وهكذا كثيرًا ما تجدني أتصل بالطالب في منزله لحل الخلاف قبل ذهابنا إلى المدرسة اليوم التالي، لكن الأطفال الذين يعانون أشد المشكلات غالبًا ما تكون الهواتف في منازلهم معطلة. لذا ألجأ أحيانًا لاستخدام البريد الإلكتروني أو الرسائل على موقع فيسبوك. وبالرغم من ذلك يستحيل في بعض الأحيان التواصل مع الطالب حتى اليوم التالي. وإذا كانت المشكلة تتضمن إحالة الطالب إلى التأديب، فربما يُفرض عليه البقاء في فصل آخر

لبعض الوقت. وفي تلك الحالة أتوجَّه إلى ذلك الفصل في الصباح الباكر، وأطلب التحدُّث إلى الطالب. **«لا» يمكنني الذهاب إلى المدرسة والتدريس وكأن شيئًا لم يكن، بعد أن كنت طرفًا في مواجهة حادة مع أحد الطلاب في اليوم السابق.** لا يوجد أمامي حلٌّ آخر سوى التحدُّث مع ذلك الطالب في أقرب وقتٍ ممكن.

وما أكثر المحادثات التي أجريتها من هذا النوع، ويمكنني أن أعلن بصدق أنه على مدار سنوات عملي معلمة، كلما أقمت حوارًا مع طالب — حدثت بيني وبينه مشادة — توثقت علاقتي به. وآخر مرة فقدت فيها أعصابي أمام أحد الطلاب كانت منذ عامَين. وكانت في موقفٍ مشابه لموقف كوري: إذ اعتاد براد ألَّا يؤدي الواجب، وأشاع الفوضى دائمًا في الفصل. وبعد التوسل إليه ورجائه ومعاملته بكل اللطف الممكن، نفد ببساطة صبري ذات يوم، واصطحبته خارج الفصل لأتحدث معه.

انفعل الطفل وتصاعد الموقف، وسرعان ما أرسلته إلى مكتب مدير المدرسة. لكنني بحثت عنه اليوم التالي — بعد أن قضيت الليل مستيقظة أعيد الموقف مرارًا وتكرارًا في عقلي — وتحدثنا وتغلبنا على خلافنا. بالطبع لم تتغير طباع براد بين ليلة وضحاها، وظل المعلمون يشتكون من تصرفاته بصورة يومية. وهكذا أُرسل بعد شهور قليلة إلى مدرسة بديلة تابعة لمنطقتنا التعليمية. وفي الربيع أعيد طلابنا المرسلون إلى تلك المدرسة للخضوع للاختبارات في مدرستنا، فأخبر براد المشرف أنه لن يخضع للاختبار أمام شخص سواي. لقد أدرك براد أنني بذلت معه جهدًا إضافيًّا، وهو ما وثق علاقتنا بقدرٍ لم يتحقق مع أي معلم آخر.

من يكون اليوم؟

عندما كنت مبتدئة في مهنة التدريس بدأت ممارسة نشاط تأملي أسميته «من يكون اليوم؟» كلما واجهت صعوبات في العمل، ولم أثق في دوري في حياة طلابي، كنت أجلس دقيقة بعد انتهاء اليوم الدراسي كل يوم، وأسأل نفسي عن أي أثر إيجابي تركته في حياة طالب واحد على الأقل على مدار ذلك اليوم.

في تلك الأيام الأولى، كانت الإجابة غالبًا تتعلَّق بأمر بسيط، كابتسام طالبة لي بعد أن أبديتُ إعجابي بحذائها الجديد. ومع ذلك فإن ذلك الأثر الضئيل ساعدني على الاستمرار، عندما كنت أشكُّ في أنني أحدث فارقًا في حياة الطلاب.

فيما بعد سمعت قصة الفتاة منقذة حيوانات نجوم البحر، المقتبسة عن مقال للمؤلف وعالم الأنثروبولوجيا لورين آيسلي، والتي تحكي لنا قصة فتاة تجمع نجوم البحر من الشاطئ وتلقيها مرة أخرى في المحيط. وذات يوم اقترب منها رجل ليخبرها أن ما تفعله لا طائل من ورائه؛ لأن عدد نجوم البحر التي يجرفها الموج إلى الشاطئ كبير جدًّا. فالتقطَت الفتاة نجم بحر وألقته في المحيط، وقالت: «واحد!»

ولسنوات اتبعت نفس الفلسفة في التدريس. فأنا واحدة من هؤلاء الذين استفادوا من الجهود المتواصلة لإحدى المعلمات، ولا شك أنني أستطيع أن أكون مثلها. أعانتني تلك الفكرة في بداية عملي، أما بعد أن أصبحت معلمة محنكة، فأرى أن مساعدة طالب «واحد» ليست كافية. لا بد أن أترك أثرًا في جميع الطلاب. لا بد أن أحرص على معاملة كل طالب كنجم بحر جرفه الموج. ولن أترك أثرًا في نفوس جميع الطلاب إلا بإبداء الاهتمام الحقيقي بهم، ومَنْحهم ساعات إضافية من وقتي.

كنت في السابق نجم بحر مثلهم، وقد صادفتني مواقف كثيرة طوال عملي في التدريس تذكرني بذلك. في يوم من الأيام دخلت غرفة المعلمات في مدرستي، ورأيت ذلك الاقتباس للكاتب جون ستاينبيك مكتوبًا على ملصق:

> في فصلها حلقت أذهاننا في كل أرجاء العالم. وعندما رحلت شعرنا بالحزن، غير أن نورها لم ينطفئ برحيلها. فقد تركت بَصْمتها القوية على عقولنا. أنظر لنفسي فأراني إلى حد كبير مخطوطتها التي لم تكتمل. ما أقوى تأثير هذه المعلمة!

قرأت الاقتباس بصوت عالٍ، ثم همست والدموع تنهال من عينيَّ: «السيدة وورنكي.» أنظر لنفسي وأتمنى أن أكون مخطوطتها التي لم تكتمل، وإلى يومنا الحاضر أبذل كل جهدي وأقدم كل ما يلزم لأنجح في هذا التحدي.

الفصل السادس

اكتشاف الأحلام

«سيظل الحلم حلمًا ما لم تواتك الجرأة لتحاول تحقيقه.»

باربرا وورنكي، ٢٤ مايو ٢٠٠٩

للأسف يدرك المعلمون حتمية حدوث مقاطعات في الحصة. وأنا لا أتحدث عن مقاطعات التلاميذ، بل عن ورود اتصال عبر نظام الاتصال الداخلي، أو قدوم طالب من مكتب المدير يحمل رسالة عاجلة، أو مرور زملاء بالفصل لطرح أسئلة «مهمة» عن عملية اختيار الدروس، كل هذا وأنت تحاول شرح درس مهم. إن مثل هذه المقاطعات شائعة في المدارس، وتعد جزءًا لا يتجزأ من العمل اليومي؛ ما عليك سوى التوقف لدقيقة للتعامل مع الأمر، ثم استكمال العمل.

لكن الأمور العادية قد تكون ذات أثر سلبي في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال بعد المقاطعة التي تعرضت لها في عامي الخامس من التدريس، تغيرت تصرفاتي في أيام الدراسة الأولى لما بقي من حياتي. كنت قد طلبت من التلاميذ قراءة قطعة قصيرة، ووقفت بجوار باب الفصل حالما ينتهون. ثم سمعت نقرًا خفيفًا على الباب، وفتحت لأجد فتاة صغيرة القدِّ في الصف الثامن. ظننتُ أنها تحمل رسالةً من زميلة، لكنها أعلنت بسعادةٍ أنها مراسلة صحيفة الطلاب، وأعربت عن رغبتها في إجراء حوار معي. فوافقت وطلبت منها العودة بعد انتهاء اليوم الدراسي.

بعد انتهاء الحصص، جلسنا معًا على مقعدَين من مقاعد التلاميذ. رفعت الفتاة غطاء قلمها. ثم طرحت عليَّ سؤالها الأول: «لماذا تعملين في التدريس؟»

لم أجد إجابة. فقد قضيت خمس سنوات من حياتي في محاولة لاكتشاف كيف أدرس وليس لماذا. ودون تفكير أشرت بيدي عبر الغرفة وسألتها: «أتعرفين مَن يجلس

في هذه المقاعد؟» بدا عليها الارتباك، فأكملت: «إنهم أطفال هذا المجتمع. إنهم أحلام هذا المجتمع التي تتحقق. لقد كان كل طفل من هؤلاء حلم شخص ما، وإنه لشرف عظيم أن أعلِّم هذا الحلم. لهذا السبب أعمل في التدريس.»

بينما كانت الطالبة المراسلة تكتب كلماتي، طأطأتُ رأسي، وقلت لنفسي: «ما أسوأ هذه الإجابة!» فكرت في إجابتي تلك الليلة وعلى مدار الأيام والأسابيع التالية، وشعرت أنها لم تكن بذلك السوء. ربما كنت محقة.

فتح نافذة على المستقبل

مع بداية المدرسة في العام التالي، ألقيت «خطاب الأحلام التحفيزي لأول يوم دراسي» للمرة الأولى في حياتي.

لطالما شعرت أن أول يوم في الدراسة هو أفضل وقت لقول الأشياء المهمة؛ الأشياء التي أريد الطلاب أن يعوها جيدًا. يكون الطلاب غالبًا متوترين قليلًا ذلك اليوم، يحاولون التعرف على طباع المعلمة والزملاء. (واليوم الأول أفضل وقت أيضًا — بخلاف أي يوم آخر — لأنك تجد مع الطلاب أدواتهم المدرسية. فيكون معهم ملفات وأوراق وعشرات الأقلام الرصاص. كم عدد الأقلام التي تكون معهم في اليوم الثاني من الدراسة؟ ولا قلم واحد. أين تذهب الأقلام؟ أعتقد أنها تنطلق كالصواريخ من نوافذ حافلة المدرسة في شوارع الريف وطرقات المدينة، فتهرب الحيوانات الأليفة وحيوانات المزرعة خوفًا على حياتها منها!)

إذن فأول يوم في الدراسة هو اليوم الذي ألقي فيه «خطاب الأحلام التحفيزي لأول يوم دراسي»، في حين تشرح الكثير من المعلمات القواعد والإجراءات المتبعة في فصولهن. ففور أن يجلس الطلاب وأنتهي من مناداة اسم «عائلة» كل طالب من قائمة الأسماء، أصمت لحظةً وأجول بنظري في الفصل. ثم أسألهم: «كم واحدًا منكم فكَّر في الأطفال الذين سينجبهم يومًا ما؟»

بالطبع يباغتهم السؤال، وأرى نظرات الدهشة والحيرة على وجوههم. يمكنني حينئذٍ قراءة أفكارهم: «ظننت أن هذه حصة المهارات اللغوية»، أو «لا شك أنها ستجعلنا نكتب شيئًا». لكن السؤال يستحوذ دائمًا على انتباه الفتيات، ويبدأْنَ في رفع أيديهن للإجابة عنه. فأكمل كلامي بطرح سؤال آخر: «كم واحدًا منكم اختار بالفعل أسماء أطفاله؟» حينئذٍ

تتلهَّف الفتيات لإخباري بأسماء أطفالهن، وغالبًا ما يشترك بعض الفتيان في المناقشة، ويعلنون: «سأضيف كلمة «الابن» لاسمي.»

ونظل بضع دقائق نتحدث عن أسماء الأطفال. وقد اكتشفت على مدار السنين أن فتيات المدرسة الإعدادية يخترن مسبقًا أسماء جميع أطفالهن، مع تحديد الاسم الأول والأوسط والأخير، ويكون الاسم الأخير غالبًا على اسم نجم مشهور.

بعد الانتهاء من مناقشة الأسماء، أطرح سؤالي التالي: «هل تعلمون أن آباءكم عندما كانوا في الصف السابع جلسوا في مقاعد مشابهة لمقاعدكم وفكروا فيكم؟ أتعرفون معنى هذا؟» في تلك اللحظة تملؤهم الحيرة، فأخبرهم: «أنتم حلمهم الذي أصبح حقيقة. ولا بد أن تبذلوا جهدكم ليبدو الحلم في أبهى صورة.»

حينئذٍ يخيم الصمت التام على الفصل. فالطلاب يفكرون في كلامي، وعلى الأرجح يريدون معرفة ما أرمي إليه. وغالبًا ما يقطع الصمتَ طالبٌ جالس في آخر الفصل بعبارة: «عجبًا! أكان أبواي في الصف السابع؟!»

ثم أقضي باقي الحصة — أول حصة في العام الدراسي — أتحدث مع طلابي عن الأحلام. وأخبرهم أننا على مدار العام سنناقش طموحاتنا وأحلامنا، وأحلام أبطال القصص التي سنقرؤها معًا، وأحلام دكتور مارتن لوثر كينج الابن المتمثلة في خطابه الشهير «لديَّ حلم». وأسأل طلابي: «لو عاد دكتور مارتن إلى الحياة اليوم، فهل سيعتبر أن حلمه قد تحقق؟» ويتفق الطلاب دائمًا أن شوطًا كبيرًا قد قُطع في سبيل تحقيق حلمه، لكن ما زال هناك الكثير بانتظار التحقيق.

أخبر الطلاب أيضًا أن كل واحد منهم أثناء العام الدراسي سيكتب خطابه الخاص بعنوان «لديَّ حلم». الأمر الذي يجعلهم دائمًا يتحمسون، فأتلقى خطابات تتحدث عن أحلام مختلفة، كمن يتمنى أن يصبح رياضيًّا محترفًا أو مغنيًا للهيب هوب. لكن خطابي المفضل كتبه طالب في الثانية عشرة من عمره يدعى كايل، والذي كتب فيه: «أحلم بأن تخرج كورتني برفقتي. إذ دعوتها للخروج في السابق ورفضت. سأدعوها مرة أخرى ... عندما أصبح في مثل طولها.»

أثناء حديثي مع الطلاب عن الأحلام في اليوم الأول، وبعد توضيحي لهم أنهم حلم شخص آخر يتجسد أمام عينيه والمسئولية الملقاة على عاتقهم جراء ذلك، أخبرهم أن للمعلمين أحلامًا أيضًا. وبالطبع يرغب جميع الطلاب في معرفة حلمي، فأقول لهم: «حلمي أن أكون معلمة متميزة. أريد أن أكون المعلمة التي يتذكرها طلابها بعد سنوات، ويقولون: «إنها المعلمة التي علمتنا كذا وكذا. إنها تلك التي اهتمَّت بنا. إنها تلك التي غيرت حياتنا».»

في عام ما رأيت طالبين من طلابي أول يوم في الدراسة يتدافعان في صف الغداء. فتوجهت نحوهما بهدوء وقلت لهما: «أنتما تحطمان حلمي. لا يمكنني أن أكون المعلمة المتميزة التي حدثتكما عنها، وأنتما تتصرَّفان على هذا النحو.» فضرب أحدهما الآخر على كتفه مداعبًا، وقال له: «لا تحطم حلمها!» كان هذان الفتيان أول من أطلق عليَّ لقب «معلمة الأحلام»؛ اللقب الذي لازمني ذلك العام وطوال حياتي المهنية.

كنت ألقي خطابي المعتاد في أحد الأعوام، عندما لاحظت أن روبين — وهي طالبة تصادف أنها كانت تجلس أمامي مباشرة — يبدو عليها عدم الاقتناع. لم أوجه لها أي كلام في ذلك الوقت، بل فضلت الانتظار لجمع مزيد من المعلومات عن طالبتي الجديدة وأسباب إحباطها. وسرعان ما اكتشفت أن والدتها تُوفيت قبل أعوام عندما كانت روبين في المدرسة الابتدائية. كانت الفتاة حزينة حزنًا شديدًا يمنعها من التفكير في الأحلام.

ذلك العام حاولت مساعدتها في إخراج الحزن الكامن داخلها، والتعبير عن نفسها بالكتابة. فكتبت قصائد وقصصًا وخطابات إلى والدتها. وفي نهاية العام كتبت لي قصيدة. حملتها معي لأعوام، والآن أحتفظ بها في حقيبتي لأريها لكل المعلمين. لا أحتاج إلى النظر إليها لأتذكر المقطع الذي يعني لي الكثير:

أحاول أن أعبر عن امتناني
إذ يعني لي الكثير
أنكِ اخترتني أنا
لتمنحيني عطفك.

بعد سنوات من سؤال الطالبة المراسلة لي، **أخيرًا عرفت جيدًا لماذا عملت في مجال التدريس**.

السيد كافينيس

يمكن لكل شخص منا التفكير في رحلته التعليمية، وتذكر المعلمين الذين تركوا أثرًا في نفسه. وأنا ممتنة لمعلمين كُثُر ساعدوا في تشكيل شخصيتي. لكن المعلم الذي ترك أكبر الأثر في نفسي هو معلم الكيمياء في المدرسة الثانوية. كرهت حصة الكيمياء لأنه كان من الصعب عليَّ فهم المفاهيم الكيميائية. لكن السيد إلتون كافينيس كان عازمًا على جعل طلابه يستمتعون بالمادة، ونجح في ذلك بفضل حس دعابته المتفرد وشخصيته المراعية للآخرين. لم يتحرَّج قطُّ من الخروج عن موضوع

الدرس؛ لإلقاء دعابة أو حكمة حياتية إذا لزم الأمر. كان البطل الرئيسي في مسرحيات المدرسة، ومقدم مباريات كرة السلة، ومستشار نادي «مسابقات المعلومات العامة». وقد تعمد الاشتراك في تلك الأنشطة المهمة لدعم طلابه ومدرسته. لم يحاول السيد كافينيس يومًا إجبار الطلاب على احترامه، بل اكتسب احترام طلابه، مما خلق بيئة تعلم إيجابية. فكان الطلاب يفضلون تناول الغداء في الفصل ليجلسوا بصحبته. أذكر أيضًا أنني كنت أضحك أنا وزملائي من كمية غبار الطباشير التي تغطي قميص السيد كافينيس ورابطة عنقه، بعد انهماكه في شرح مصطلح جديد على السبورة. لقد عمل بجد ليجعل التعلم تجربة هادفة ولا تُنسى. فمثلًا شرح لنا التفاعلات الكيميائية بصنع آيس كريم في الفصل. والآن كلما تناولت الآيس كريم المنزلي، تذكرت تجربة السيد كافينيس.

لا شك أن السيد كافينيس لعب دورًا قياديًّا في المدرسة وفي المجتمع؛ لأنه أراد أن يترك أثرًا في حياة الآخرين. وقد شجعنا جميعًا على اختيار طريقنا في الحياة، ونصحنا بعدم النظر إلى الوراء مطلقًا. ويرجع الفضل له في أنني أقف الآن أمام طلابي، أطمح في إلهامهم بالطريقة التي ألهمني بها ومساعدتهم على تحقيق أحلامهم. ويشرفني أن أعتبر السيد كافينيس والدي.

تريشا ميوز، معلمة الصف الرابع بمدرسة بيدج ستريت الابتدائية، ببلدة تروي بولاية كارولينا الشمالية، والحائزة على لقب معلم العام عن منطقة ساندهيلز والمنطقة الجنوبية الوسطى للعامَين ٢٠٠٨–٢٠٠٩

التعلم من الأحلام

في عامٍ آخر وأنا أتحدَّث عن الأحلام رفع طالب يدعى إيدي يده، وسألني: «ماذا تفعلين إن حطم أحدهم حلمك ودمره تمامًا؟»

فعدت بذاكرتي سنوات طويلة، وتذكرت حلمي بأن أصبح مشجعة، ثم أجبته: «أمامك خياران يا إيدي. إما أن تلملم الحطام وتحاول تحقيق نفس الحلم. أو أن تفكر في حلم آخر وتبذل كل طاقتك لتحقيقه.»

أراد إيدي أن يصبح مصارعًا في فريق المصارعة بالمدرسة الإعدادية. ومع أنه لم يكن أضخم طالب في الصف السابع فقد حاول بكل قوته تحقيق حلمه ذلك العام. فظل يتدرب على المصارعة بشكل قوي. وكتب عنها في يومياته، وتحدث عنها بانتظام مع الجميع، حتى بدأ يجيدها يومًا بعد يوم. وبانتهاء الموسم كان الفتى لا يُقهر، وبدأ الطلاب يطلقون عليه اسم «بوبا»، على اسم المصارع الشهير. كم كان ممتعًا حضور مباريات المصارعة وسماع المشجعين يرددون: «بوبا، بوبا، بوبا ...»!

وفي النهاية فاز إيدي ببطولة الولاية عن الوزن الذي يمثله في المرحلة الثانوية، ولا شك أنه كان مصارعًا موهوبًا، أما عن إيدي الطالب في الصف السابع، فلم يكن في الغالب جادًّا. تمتع إيدي بشخصية مميزة وعقل متفتح، لكن كثيرًا من المعلمين وصفوه بأنه مهرج الفصل؛ إذ كان قادرًا بدعابةٍ واحدةٍ أن يشتت انتباه الجميع في الفصل. ومع هذا أحببته، وكنت فخورةً بعزمه على تحقيق حلمه الرياضي.

في ذلك العام، كنا في إجازة نصف العام التي ينتظرها المعلمون والطلاب بفارغ الصبر للراحة في منازلهم مدة أسبوعَين، وفي إحدى الليالي راودني حلم — بل كابوس — يتعلق بطلابي. حلمت أننا كنا عائدين من رحلة ميدانية، وطلاب الصف السابع مكدسون في ثلاث حافلات مؤجرة. كنت أركب في أول حافلة وصلت إلى المدرسة. توقفت الحافلة سريعًا بجوار السور، ونزلت أنا والطلاب في صف منظم. ثم انتظرنا وصول الحافلة الثانية. وصلت الحافلة ونزلت المجموعة الثانية من الطلاب سريعًا، ووقفنا جميعًا نراقب الحافلة الثالثة وهي تقترب.

في تلك اللحظة انفجرت الحافلة الثالثة أمام أعيننا. فصرخنا مذعورين، وبدأنا نبكي — معلمين وتلاميذ — حزنًا على أصدقائنا الأعزاء الذين فقدناهم في تلك الحافلة. وهُرع الطلاب نحوي سائلين: «مَن كان على متن تلك الحافلة؟»

بدأت قراءة الأسماء بصوت عالٍ من قائمة كانت بيدي: «كريستال بلالوك»، فشهق الجميع حزنًا.

وعلقت قائلة: «لقد أحببتها.»

ثم قرأت الاسم التالي: «أنطوني بارجر.» فسمعت شهقة أخرى. بالطبع كان الجميع في تلك اللحظة يبكون ويتعانقون. ثم قرأت الاسم التالي: «إيدي بوبا هايوود.» فتحول البكاء إلى عويل.

وصرخنا جميعًا: «هذا غير معقول! نحن نحب إيدي! إنه مصارع موهوب. كم كان فتًى عظيمًا!»

في تلك اللحظة في الحلم شعرت بأحدٍ يشدني من كُمي. فنظرت حولي لأجد إيدي. رأيته واقفًا إلى جواري مبتسمًا، كما اعتاد أن يبتسم وهو جالس في مقعده آخر الفصل.

صرخت قائلة: «إيدي! ماذا تفعل هنا؟ اسمك مكتوب في قائمة طلاب الحافلة الثالثة، وقد رأيناها للتو تنفجر!»

جرجر إيدي قدميه على الأرض بحذائه الخاص بالمصارعة، وأجابني ونفس الابتسامة على وجهه: «هذا صحيح، لكنني ركبت الحافلة الخطأ.»

ساد صمت. وشعور بالمفاجأة. وحدق الطلاب في إيدي غير مصدقين. ثم أجبته: «بالطبع هذا صحيح! فأنت دائمًا في المكان الخطأ، يا إيدي هايوود! ما رأيك في هذا؟»

حينئذٍ استيقظت من نومي. وأدركت أنني كنت أبكي بالفعل عندما وجدت الوسادة مبللة. بكيت حزنًا على طلابي كريستال وأنطوني وبوبا الذين ظننت أنهم رحلوا. كانت الساعة الرابعة صباحًا لكنني أردت الاتصال بطلابي في الحال، لأعبر لهم عن شعوري نحوهم. أردت أن أخبرهم كم يعنون لي قبل أن يقع لهم مكروه. غير أنني كبحت جماح نفسي ولم أتصل بأحد.

بدأت الدراسة بعد ذلك بأسبوع. يكون اليوم الأول بعد الإجازة دائمًا يومًا مهمًّا. إذ يحضر الجميع نشيطًا ومرتاحًا — كما هو الحال في أول يوم دراسي — ويكون اليوم هادئًا بعض الشيء. لذا أستغل هذا اليوم في تذكير الطلاب بالإجراءات المتبعة، وتطبيق خطط جديدة لإدارة الفصل، ومناقشة أهدافنا لما بقي من العام الدراسي. لكنني في ذلك اليوم بالذات تحدثت إلى تلاميذي عن مقدار أهميتهم في حياتي.

بدأت حديثي بتذكيرهم بخطاب الأحلام الذي ألقيته عليهم أول يوم في العام. وضحك بعض الطلاب في هدوء قائلين: «ها قد بدأت ثانية!» ثم أخبرتهم أن الأحلام التي تراودنا ليلًا قد تتداخل أحيانًا مع واقعنا. وقصصت عليهم الحلم الذي رأيته، والطلاب الذين فقدتهم في الحافلة المنفجرة، وأخيرًا إيدي الذي كاد يضيع مني لكنه كان في الحافلة الخطأ. بالتأكيد كانت القصة أهم حدث في ذلك العام. فطلابي لم يستمتعوا بالقصة وبسماع أسمائهم فحسب (إذ ذكرت قائمة بأسماء الكثير من المفقودين عندما سردت القصة)، بل وجدوا أيضًا الجزء المتعلق بإيدي مضحكًا. فالكل يعرف إيدي وشخصيته، ولم يكن من المستغرب أن يخفق ويركب الحافلة الخطأ. وردد الجميع على الفور: «بوبا ... بوبا ... بوبا ...» وهو جالس آخر الفصل مبتسمًا كعادته.

أوضحت للطلاب أن الحلم يحمل معنًى خاصًّا لي. فأنا لا أريد مطلقًا أن يساورني ذلك الشعور الذي شعرت به، عندما استيقظت فزعة من أن يصيب طلابي مكروه، وقلقة ألَّا يكونوا مدركين لأهميتهم عندي. لذا انتهزت الفرصة لأقول لهم ببساطة: «أنا أحبكم يا رفاق!» فضحكوا كما لو كنت أهذي، لكنهم قالوا لي إنهم يحبونني أيضًا. أؤكد لكم أنه بعد حصة كهذه يكون شرح الدروس أسهل كثيرًا في اليوم التالي.

صحيح أن لقب «معلمة الأحلام» وُلد حينئذٍ، إلا أن أحلامي قد وُلدت قبل عقود، عام ١٩٦٣ وأنا في الصف الأول، وهو نفس العام الذي ألقى فيه دكتور مارتن لوثر كينج

الابن خطاب أحلامه الشهير أمام العالم. ونظرًا لأنني حظيت بمعلمة معطاءة عبَّرت عن مشاعرها باستمرار لطلابها، أمكنني بعد أعوامٍ أن أتصرَّف من منطلق خبرتي المكتسبة، وأعبِّر عن مشاعري لطلابي بنفس الصدق.

إن استيقاظي من النوم باكية ذلك اليوم أحيا في مخيلتي ذكرى تلك المعلمة الشابة. وشعرت برغبة قوية في إخبارها عن حلمي أن أصبح معلمة تترك أثرًا. أردت أن أخبرها أنها لعبت هذا الدور معي. لكنني فقدت كل صلة بها عام ١٩٦٧ عندما انتقلت خارج الولاية. وبعد مرور أربعين عامًا لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن المكان الذي قد تكون فيه. ومع هذا حلمت بأن أعثر عليها يومًا ما وأخبرها بقصتي. ولا شك أن الأحلام يمكن أن تتحقق أحيانًا.

الفصل السابع

البحث عن السيدة وورنكي

«بالطبع أتذكرك ...»

باربرا وورنكي، ٥ سبتمبر ٢٠٠٨

على مدار السنين، كثيرًا ما فكرت في معلمتي في الصف الأول، وسألت نفسي: هل ستذكر فتاة صغيرة نحيفة الساقين كانت تدرسها في فصل رطب في القبو؟ وأنا طالبة اعتدت مقارنة كل معلماتي الأخريات بها؛ إن كن طيبات وملهمات تذكرت صفاتها المماثلة، وإن كن نزاعات للانتقاد ونافدات الصبر، تمنيت في صمت لو أنهن مثلها.

وفور أن عزمت على التخصص في مجال التدريس، تخيلت أنني أتحدث مع «السيدة المعلمة» حديثًا وديًّا، تمنحني فيه خلاصة تجاربها التي أحتاجها للنجاح في فصولي المستقبلية. عندما تعثرت في بداية عملي في التدريس كثيرًا ما كنت أعود بذاكرتي إلى الصف الأول، وأسأل نفسي عما يجب فعله لأضمن أن طالبًا — أي طالب — سيذكرني بعد أعوام طويلة كما أذكر السيدة وورنكي.

ثم حدث لي شيء رائع عام ٢٠٠٨؛ إذ حصلت على لقب معلم العام في ولاية كارولينا الشمالية. شعرت أنني لا أستحق اللقب عندما فكرت في بدايتي المتعثرة ومسيرتي في التدريس، لكنني شرفت بالحصول عليه. في الواقع بدأت ذلك العام التفكير في حياتي الدراسية ثم التدريسية، وأردت أن تعلم السيدة وورنكي أنني سعيت لأكثر من عشرين عامًا لأصبح مثلها.

لا عجب أن تراودني مثل هذه الأفكار في ذلك الوقت. فمع حصولي على لقب معلم العام، جاءت مهام جديدة بوصفي «سفيرة المعلمين» عن ولايتي أخرجتني من الفصل،

واضطرتني أن أسافر بسيارتي آلاف الأميال لأتحدث باسم المعلمين والتعليم، وأشجع طلاب المدارس الثانوية والجامعات على امتهان مهنة التدريس، وأحاول إلهام معلمين جدد على استمرار العمل من أجل تغيير حياة الطلاب. وأينما ذهبت وُجهت لي نفس الأسئلة من قبيل: من الذي شجعك على العمل في التدريس؟ لماذا في اعتقادك وقع عليك اختيار الولاية لتنالي لقب معلم العام؟ ووجدت أغلب إجاباتي تدور حول أساليب السيدة وورنكي التدريسية وطيبتها اللامتناهية؛ لهذا ظلَّت في بالي بشدةٍ طوال تلك الفترة.

برنامج «جود مورنينج أمريكا»

اعتدت تشغيل التلفزيون وأنا أستعد للذهاب إلى العمل، فأستمع إلى نشرة الأخبار المحلية الصباحية، التي تذاع مباشرة قبل برنامج «جود مورنينج أمريكا» على شبكة إيه بي سي، وقد أتابع جزءًا من البرنامج أيضًا. وأنا من أشد المعجبين بهذا البرنامج، وخاصة منذ أن زار المذيعان تشارلز جيبسون وديان سوير حرم جامعة كارولينا الشمالية قبل أعوام. وقتها كانت ابنتي كيلي مشجعة في فريق جامعة كارولينا الشمالية، وكنت قد ابتكرت هتافًا لفريقها يضم أسماء مذيعي هذا البرنامج. ذهبت إلى الحرم الجامعي ذلك اليوم، وظللت ألتقط الصور كأي والدة متحمسة، وأنا أشاهد كيلي وهي تحقق حلمي في أن أكون مشجعة في الجامعة. وشاهدت السيد تشارلز والآنسة ديان وهما يمازحان جموع الطلاب الجامعيين، ويضحكان من كلمات الهتاف الذي ألفته، ويداعبون رمسيس — تميمة حظ الفريق — وهو كبش له قرنان أزرقان.

بعد بضع سنوات، أرسلتُ إلى المذيعة روبين روبرتس بطاقة لأحييها على شجاعتها في إعلان إصابتها بسرطان الثدي على الهواء. فوالدتي تعافت من إصابتها بسرطان الثدي، ووالدي توفي لإصابته بسرطان نخاع العظام في نفس العام الذي توفي فيه والد الآنسة روبين. وفرحت — ولكنني لم أتفاجأ — عندما تلقيت ردًّا على بطاقتي. إن جميع المذيعين والعاملين في برنامج «جود مورنينج أمريكا» هم أهلنا وجيراننا الذين يسكنون على بُعد آلاف الكيلومترات، ويزوروننا كل صباح ليتحدثوا إلينا.

لقد بدأ اليوم الذي كنت أستعد للتحدث فيه إلى طلاب جامعة ديوك الذين يتدربون كي يعملوا في مجال التدريس كأي يوم عادي؛ كنت أضع المكياج بينما كان يتحدث أصدقائي في نيويورك عن الأحداث الجارية، رغم أنني لم أكن أنتبه للبرنامج لأنني كنت أفكر فيما سأقوله. ثم أدركت أن فقرة مميزة تُعرض في البرنامج. فألقيت نظرة على

التلفزيون ورأيت شابة من نبراسكا تحكي قصة نجاتها بأعجوبة من الغرق وهي طفلة. وفي الفقرة تمكنت المرأة لأول مرة أن توجه الشكر وجهًا لوجه إلى الرجل الذي أنقذها من البحيرة عصر أحد الأيام قبل ثلاثين عامًا.

راقبتُ المرأة — بافتتان — وهي تسرد أحداث قصتها، ثم تشكر الرجل الذي أنقذ حياتها. وقدمت له دفتر قصاصات يؤرخ الأعوام التي عاشتها بفضل مساعدته لها. تسمرت أمام التلفزيون والدموع المنهمرة تفسد المكياج الذي وضعته منذ لحظات، واستمعت إلى مذيع الفترة الصباحية كريس كومو وهو يختتم الفقرة بعبارة: «إذا أردت أن تشكر شخصًا غيَّر حياتك، فزُر موقع برنامجنا «جود مورنينج أمريكا» على الويب.»

وقفت في غرفة نومي أتابع كريس كومو في التلفزيون، وتمتمت وأنا أبكي: «أريد أن أشكر السيدة وورنكي.» بعدها غسلت وجهي وأعدت وضع المكياج، وذهبت إلى العمل أحمل هدفًا جديدًا، وهو التأكد أن معلمي المستقبل يدركون أهمية عملهم.

انشغلت بشدة عدة أسابيع بالتدريس وبمهام «سفيرة المعلمين»، حتى نسيت أن أراسل برنامج «جود مورنينج أمريكا» لأعبر عن رغبتي في شكر السيدة وورنكي. وفي إحدى الليالي كنت أشاهد أنا وزوجي ديفيد التلفزيون، فأمسك ديفيد جهاز التحكم عن بُعد وأخذ ينتقل من قناة إلى أخرى، وكلما بدأتُ متابعة برنامج، انتقل إلى قناةٍ أخرى سريعًا. فعل ذلك مرات عديدة. وفي النهاية نظرت إليه وصرخت فيه «توقف!» فأمسك جهاز التحكم ووجَّهه نحوي، ثم ضغط زر كاتم الصوت.

واحتجاجًا مني على ذلك، نهضت وذهبت إلى غرفة الطعام لإحضار الكمبيوتر المحمول الخاص بي، وقضاء الوقت في تصفح المواقع التعليمية بدلًا من العراك مع زوجي بشأن التلفزيون. وبعد أن شغلت الكمبيوتر المحمول تذكرت برنامج «جود مورنينج أمريكا»، فدخلت على الفور على موقعه. ظهر أمامي مربع صغير بسيط يدعوني أن أخبر العالم بأسرار طفولتي. بدأت أكتب، ولم أتوقف حتى سردت كل شيء: قصة السيدة رايلي، وشيلا، وساقيَّ النحيفتَين وشعري المجعد، والقبو، والسيدة وورنكي، وأبيات الشعر التي كتبتها لها؛ كل شيء. ثم ضغطت زر الإرسال، ولم أفكِّر في الأمر بعدها.

رحلة إلى الماضي

بعد مرور شهر وفي وقت متأخر من المساء، تلقيت رسالة إلكترونية من براين أوكيف أحد منتجي برنامج «جود مورنينج أمريكا»، يقول فيها: «مرحبًا يا سيندي، أنا أحد منتجي

برنامج «جود مورنينج أمريكا»، وقد أعجبتنا قصتك عن معلمتك باربرا. أيمكنني الاتصال بك؟»

وكان أول شيء خطر ببالي: «باربرا مَن؟!»؛ فأنا أعرفها — وسأظل أعرفها — باسم «السيدة وورنكي» أو «السيدة المعلمة» وليس باربرا. أما ثاني شيء خطر ببالي، فكان: «هل اخترق أحد موقع البرنامج، وسرق البيانات التي أرسلتها؟!» لم أتصور أن أحدًا سيهتم بقصتي. لكنني أرسلت له رقم هاتفي المحمول، وليس هاتف المنزل خشية أن يكون شخصًا منحرفًا أو مجرمًا، ثم انتظرت. فرن جرس الهاتف بعد دقيقة واحدة، في تمام الحادية عشرة والنصف ليلًا.

قال المتصل: «معك براين يا سيندي. أعتذر عن الاتصال في وقت متأخر، فهناك فرق في التوقيت. أحدثك من لوس أنجلوس.» أخذ قلبي يخفق بقوة. لوس أنجلوس؟ إنه يحدثني من لوس أنجلوس!

أخبرني براين أنه أعجب بقصتي عن معلمتي التي لم أرها منذ زمن طويل، هو والمنتجون الآخرون للبرنامج. ثم أبلغني أن العاملين في البرنامج حاولوا البحث عن السيدة وورنكي لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليها. وطلب مني أي معلومات إضافية عنها، كآخر عنوان لها أو اسم زوجها. حاولت مساعدته قدر استطاعتي، لكنني لم أعرف الكثير عنها. فنحن نتحدث عن شخص آخر تواصل معه كان خطابًا تلقيته منه عام ١٩٧٠. في الواقع فاجأني براين عندما قال: «لم نعثر عليها، لكننا تأكدنا أنها ما زالت على قيد الحياة. فقد تفقدنا سجلات الوفيات التي يسهل الحصول عليها. هذا معناه أنها حية.»

ومع أن هذا الخبر أراحني، فقد شعرت بالاضطراب حينما أخبرني براين أنه سيواصل البحث عن السيدة وورنكي، وطلب مني أن أسافر إلى نيويورك للظهور في البرنامج. ثم وعدني أن يظل على اتصال بي، وخلدت إلى فراشي تلك الليلة وأنا أحاول تصور شكل معلمتي في الصف الأول بعد كل هذه السنين.

لطالما كانت السيدة وورنكي كائنًا أسطوريًّا في نظري؛ فأنا أتذكرها معلمة مثالية وشابة مبتسمة مراعية لطلابها دائمًا. حاولت تخيلها في هيئة امرأة عجوز لأنها على الأرجح في الثمانينيات من عمرها مثل والدتي. وحلمت باللقاء الذي سيجمعنا في برنامج «جود مورنينج أمريكا»، وسألت نفسي هل ستدخل متكئة على عصًا أو مستندة على مشاية. ثم تصورتها جالسةً في مقعد متحرك تتنفس بمساعدة أنبوب أكسجين. ماذا لو كانت بالفعل عجوزًا ضعيفة؟ هل ستطغى هذه الصورة على تلك، وتمحو صورة البطلة من خيالي؟ ماذا لو لم أعثر عليها مطلقًا؟ ماذا لو ظهرتُ في التلفزيون الوطني وسعيت للبحث عن

شخص لا يريد أحدًا أن يعثر عليه؟ لا شك أن السيدة وورنكي تحيا حياة سعيدة هادئة منعزلة في مكان ما، ولا تريد أن يعكر صفوها طالبة من الماضي قد لا تتذكرها.

بعد بضعة أيام اتصل براين مرة أخرى، ليبلغني أنني سأظهر في البرنامج في حلقةٍ خاصةٍ عن العودة إلى المدارس. وسأقصُّ على العالم قصتي في الحلقة المقرر إذاعتها يوم ٥ سبتمبر ٢٠٠٨ بعد يوم من بلوغي عامي الحادي والخمسين. كنا نأمل جميعًا أن تكون السيدة وورنكي أو أحد من معارفها يشاهد البرنامج. هُرعت إلى المكتبة لشراء نسخةٍ من كتاب «اقرأ لي وسأقرأ لك» الذي أهدتني إياه السيدة وورنكي قبل أربعين عامًا. أردت أن يكون الكتاب معي في اللقاء، لعل معجزة تحدث ويتمكن براين من العثور عليها. كتبت إهداءً عليه، أشكر فيه «السيدة المعلمة» لأنها غيرت حياتي، واحتفظتُ به لعلي أقابلها.

قبل موعد سفري إلى نيويورك بأسبوع حضر براين وطاقمه إلى منزلي، للحديث معي ومع والدتي وأختي وابنتي عن السيدة وورنكي وعن عملي في التدريس. وحينما كان طاقم البرنامج ينزل المعدات ويثبت الأضواء والكاميرات والشاشات، حضرت جارتي وسألتني: «ماذا تفعلين؟ هل تصوِّرين فيلمًا؟» بالفعل شعرت للحظةٍ أنني نجمة سينمائية عندما بدأ التصوير. لكن حديثي المطول عن السيدة وورنكي أعادني الفتاة الصغيرة سيندي التي تشعر بعدم الأمان في الصف الأول الابتدائي. وسرعان ما انهالت الدموع من عينَيَّ أثناء الحوار. فسألني براين عما إذا كان العثور على السيدة وورنكي يثير مشاعري، وأراد أن يعرف ما سأقوله لها إذا أتيحَت لي الفرصة.

أجبته ودمعة تسيل على خدي: «سأسعد كثيرًا. أريدها أن تعلم أنه فيما مضى كانت هناك فتاة نحيفة صغيرة لم تثق بنفسها. ثم تغير كل شيء في ليلة وضحاها. بفضلها تغيرت حياتي بأكملها، وأصبحت قادرة — كما آمل — على التأثير في حياة طلاب كثيرين وقد تغيرت حياتهم أيضًا.»

استمرت رحلتي إلى الماضي لما بعد ظهيرة ذلك اليوم، عندما قدت السيارة عدة أميال بصحبة براين لأريه مكان مدرستي الابتدائية. كان مبنى مدرسة براجتاون — الذي عشت فيه تجربتي المهمة في الصف الأول الابتدائي — قد دُمر بالكامل بفعل حريق عام ١٩٩١. حينئذٍ كنت أدرِّس في مدرسة إعدادية تبعد بضعة أميال عنه، فوقفت في ملعب كرة القدم أراقب سحب الدخان ترتفع فوق الأشجار، وبكيت مثلي مثل كثيرٍ من زملائي ونحن نشاهد احتراق جزءٍ من ماضينا؛ إذ كان قد درس هناك العديد منهم في العام السابق.

افترشت أرضيات المبنى العتيق الذي شُيِّد عام ١٩٢٧ بألواح خشبية لامعة، لهذا لم يكن ثمة مفرٌّ من تدميره بالكامل بسبب الحريق. وفي أقل من ساعةٍ اختفت المدرسة وتلاشت فرصتي في رؤية فصلي في القبو مرة أخرى.

اصطحبت براين في ذلك اليوم في جولة حول المنطقة، وأريته مكان الملعب وقاعة الألعاب الرياضية. اشتقت لرؤية مدرستي القديمة، ولمس جدرانها، والجلوس في مطعمها، وتناول حساء الخضراوات المنزلي الصنع ولفائف الخميرة. لكن حلمي كان مستحيلًا. تكفيني ذكرياتي؛ التي كان بعضها قريبًا وواضحًا والبعض الآخر بعيدًا ومشوشًا. جعل هذا الإدراك رحلتي إلى مكان المدرسة أكثر إثارة لشجوني.

السيدة برنيت

سألني صوت عبر الهاتف: «هل أنت صغيرتي سوزي؟»

فأجبت: «نعم يا سيدتي.»

كانت المتصلة السيدة برنيت، معلمة المهارات اللغوية والتاريخ في الصف السادس. إنها المعلمة التي تركت أثرًا في حياتي. وبثَّت في نفسي حب التدريس.

كانت السيدة برنيت ترتدي ملابس أنيقة، وأحذية غالية تشتريها من أفضل متجر في المدينة: ليونز. ومع أنها كانت امرأة صغيرة الجسم، فقد ارتعد الطلاب في كل مرة رمقتهم بنظرتها الحادة من فوق نظارتها. في حصتها اعتدنا كتابة موضوعات عن الأساطير، والمواقع الأثرية المهمة، وعجائب الدنيا السبع. بدأتْ علاقتي بالأبحاث مع تعاملي مع موسوعة الكتاب العالمي. فقد كان مطلوبًا مني كتابة بحث عن القلعة اليونانية أكروبوليس. بدأت البحث على نحو خاطئ حتى وصلت في النهاية إلى كلمة أكروبوليس. فالمعرفة من أجل المعرفة متعة.

كانت السيدة برنيت تخضعنا أسبوعيًّا لاختبارات تراكمية متعلقة بالحصيلة اللغوية، ولم تكن الأسئلة سهلة كأسئلة صواب وخطأ أو توصيل، ومع بلوغنا الاختبار الأخير الذي ضم أربعمائة كلمة كنت قد أغرمت بالكلمات. وبعدما منحتني جريدة «ذا واشنطن بوست» جائزة آجنس ماير للمعلم المتميز، أرسلت خطابًا للسيدة برنيت. أخبرتها فيه أنني اقتديت بها وأحسنت التصرف. فردت بخطاب تخبرني فيه عن مدى فخرها بي. وكان لهذا كبير أثر في نفسي.

مضت تقريبًا عشرة أعوام على آخر مرة تبادلنا فيها الخطابات، وسعدت — رغم دهشتي قليلًا — أن السيدة برنيت البالغة من العمر ثمانية وتسعين عامًا ستكون ضيفة الشرف في الحفل الأربعين لاجتماع فصلنا. لم أتمكن من الذهاب إلى تكساس لحضور الحفل، فراسلتها ثانية وأنا أستعيد ذكريات الشعر الذي تعلمناه، والكلمات التي حفظناها، ودفتر التاريخ الذي جعلتنا نحتفظ به.

أردت أن أخبرها مرة أخرى أنها أثرت فيَّ، وأنني كتبت عنها، وأنني اقتديت بها؛ فهي معلمة علمت طلابها ألَّا يعرفوا المعلومات فقط، بل أن يفكِّروا فيها أيضًا.

وفجأة — بعد ما يقرب من خمسين عامًا — أسمع صوتها عبر الهاتف تقول: «أصبحت تؤلفين الكتب! لطالما عرفت أنك تتمتعين بمواهب عظيمة يا سوزي. تدركين طبعًا أن المعلم يجب ألَّا يشعر بأن بعض طلابه قريبون إليه أكثر من غيرهم، لكنكِ معلمة وتدركين أننا مهما حاولنا أن نكون محايدين، فهذا يحدث رغمًا عنا. وقد كنتِ دائمًا طالبتي المفضلة.»

أجبتها: «وأنت أيضًا كنت معلمتي المفضلة يا سيدة برنيت. لقد علمتني كيف أكون معلمة.»

تُرى هل سأتصل يومًا ما بأحد طلابي لأجري حديثًا مماثلًا!

سوزان جراهام، معلمة مادة الأسرة وعلوم الاستهلاك، بمدرسة جايل الإعدادية، فريدريكسبيرج، فرجينيا، الحاصلة على لقب معلم العام في المنطقة الثالثة بولاية فرجينيا لعام ٢٠٠٠

تحت الأضواء

في الأسبوع التالي طرت أنا وزوجي إلى نيويورك. ولم يسبق أن كنت قلقة إلى هذا الحد طوال حياتي. لم أنم إلا قليلًا الليلة السابقة لظهوري في البرنامج، لأنني كنت أحاول ترتيب الكلمات التي سأقولها في التلفزيون الوطني حتى تكون ذات معنًى. كثيرون قبلي تحدَّثوا عن المعلم الذي غيَّر حياتهم. فكيف يمكن أن أشرح للعالم الأثر الذي تركته السيدة وورنكي فيَّ؟ كيف أصف شعوري بعدم الثقة وأنا في الصف الأول الابتدائي، وكيف تغيرت حياتي كلها في يوم واحد، هو يوم نقلي إلى فصل آخر؟

في صباح يوم ٥ سبتمبر، وصلت أنا وديفيد مبكرًا — قبل السادسة والنصف صباحًا — إلى استوديوهات برنامج «جود مورنينج أمريكا». واستقبلتنا إحدى منتجات البرنامج وتُدعى كايتي، واصطحبتنا إلى غرفة تغيير الملابس. ظلت كايتي وغيرها من العاملين في البرنامج يتحسرون على عدم العثور على السيدة وورنكي، ويقولون إن ظهورها في البرنامج سيكون أمرًا رائعًا، بدلًا من ظهوري وحدي في التلفزيون الوطني ورجاء كل من يعرفها أن يتصل بنا. كرر الكثيرون هذه العبارات أمامي طوال الطريق إلى غرفة تغيير الملابس، حتى إنني تأكدت أنها لن تدخل علينا فجأةً كما تمنيت. وبالرغم من ذلك، قررت استغلال اللحظة الحالية لأنني علمت أن طلابي سيتابعون البرنامج في المدرسة، وسيرغبون حتمًا بعد عودتي في مشاهدة الصور التي التقطتها وسماع القصص التي

سأرويها. لهذا التقط ديفيد صورًا لكل شيء، بدءًا من لحظة جلوسي بين يدي متخصص وضع المكياج، وانتهاءً بلحظة وقوفي مرعوبة في الاستوديو في انتظار ظهوري على الشاشة.

بعد الانتهاء من تصفيف شعري ووضع مكياجي، جلست في غرفة تغيير الملابس أحاول تهدئة نفسي والتخفيف من حدة قلقي. فكرت في السيدة وورنكي، وفي شعوري في المستقبل إذا فتحت التلفزيون ذات يومٍ لأرى أحد طلابي السابقين يتحدث عني. ثم جلسَت كايتي معي وأخبرتني عن معلماتها اللاتي تتذكرهن. وبعد أن خرجت كايتي لتسأل باقي المنتجين عن الوقت المتبقي حتى موعد ظهوري، حاولت الاستماع إلى بعض الموسيقى لكنني كنت متوترة للغاية. وانتفضت واقفة عندما عادت كايتي لتخبرني أن الوقت قد حان للذهاب إلى الاستوديو.

مررنا أمام غرفة تغيير ملابس روبين روبرتس، ورأيت على الباب لافتة كُتب عليها على نحوٍ ملائم «عش روبين». كانت روبين وديان سوير تغطيان المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري ذلك اليوم؛ لهذا لم تُتح لي فرصة مقابلتهما. لكنني لم أشغل بالي بذلك لأنني كنت قلقة بدرجة لا تجعلني أفكر في الفرصة التي ضاعت مني. أخيرًا وصلنا الاستوديو بعد الصعود في مصعد ضخم يتسع لشاحنة. ومع أنني تابعت البرنامج لسنوات، فقد بدا الاستوديو مختلفًا تمامًا من حيث وقفت. فأول شيء لاحظته أنه كان مزدحمًا جدًّا؛ إذ كان يكتظ بجمهور الاستوديو، والعشرات من العاملين الذين يشغلون الكاميرات ويحملون الأسلاك. لم يسبق أن لاحظت هذه الفوضى المنظمة وأنا أشاهد التلفزيون. وفور أن استجمعت قواي رأيت الوجه الباسم لمذيع فقرة الأحوال الجوية سام تشامبيون، الذي مد يده وصافحني بحرارة كما لو كنا صديقَين قديمَين. ثم رأيت طاهية التلفزيون الشهيرة سارة مولتون التي أعدت وجباتٍ خفيفةً بمناسبة العودة إلى المدارس، مراعاة منها لموضوع برنامج اليوم.

طلبت مني كايتي الانتظار خلف إحدى الكاميرات، فتسمرت في مكاني في رعب. ولم يتوقف ديفيد عن التقاط صور لي مع أنني لم أتمكن من الابتسام من فرط القلق، وأطبقت أسناني مخافة أن يظهر للجميع أنها تصطك من الخوف. كان جزء من خوفي راجعًا إلى ظني أن البرنامج عثر «بالفعل» على معلمتي لكنها لا تتذكرني. وفكرت فيما يجب أن أقول لأنعش ذاكرتها. وإذا تذكرت طالبتها الصغيرة التعيسة في الصف الأول، فكيف سأجد الكلمات المناسبة لأصف لها المكانة الأسطورية التي احتلَّتها في عقلي، على مدار ما يزيد عن أربعين عامًا؟

في انتظار ظهوري على التلفزيون لأول مرة. مع أن أسناني كانت تصطك من الرهبة، فقد كنت أحاول الابتسام.

لكن لم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير مليًّا في تلك الأمور. فقد سمعت صوت كريس كومو يعلن الانتقال إلى فاصل إعلاني، وسرعان ما وجدت كايتي تقتادني إلى مقعدي. جلست بعد أن حياني السيد كريس بحرارة، ثم سمعت العد التنازلي للعودة على الهواء: ٥، ٤، ٣، ٢ ...

«وفجأة عدت بذاكرتي إلى المدرسة الابتدائية، ورأيتني أجلس بين جميع الطلبة على الأرض، أمام جهاز تلفزيون أُحضر خِصِّيصى ذلك اليوم. نحن نشاهد أحد صواريخ أبولو وهو على وَشْك أن ينطلق في الفضاء، ونعد في صوتٍ واحد: ٥، ٤، ٣، ٢ ....»

ثم سمعت صوت كريس كومو يقول: «موضوعنا هذا الصباح هو العودة إلى المدرسة، ومعنا سيدة تبحث عن معلمتها في الصف الأول لأنها غيرت حياتها ...» حاولت أن أتنفس بانتظام، وشاهدت الفيديو الذي يُعرض على الشاشة أمامي. رأيت مدرسة براجتاون في كامل مجدها. كان تصويرًا بالأبيض والأسود لمبنى مدرستي القديمة. فتذكرت رائحة

الأرضية الملمعة بالشمع، وقاعة الألعاب الرياضية العتيقة، وصوت أمينة المكتبة السيدة تشاندلر وهي تقص علينا قصص الأرنب برير، وصوت السيدة فيسي سائقة الحافلة رقم ٥٨ وهي تطلب منا أن نجلس في أماكننا. وتذكرت الملمس الصلب لغلاف كتاب «ديك وجين» الخاص بالقراءة، بينما كانت تقرأ لنا منه السيدة وورنكي.

ثم عدت إلى الحاضر عندما ظهرت أختي على الشاشة، وتحدثت عن شعوري بعدم الثقة في صغري، وشككت لحظةً في صحة القرار الذي اتخذته بسرد وقائع حياتي أمام العالم كله. بعد ذلك ظهرت والدتي البالغة من العمر ثمانين عامًا لتتحدث عن السيدة وورنكي وعني، وكانت في تلك اللحظة تبعد خمسة أميال في ولاية كارولينا الشمالية. نظرت إلى السيد كريس وتمتمت: «هذه أمي ...»، وشعرت أنني قد أنفجر في البكاء في أي لحظة.

ثم ظهرت صورتي على الشاشة، وأنا أبكي أثناء إجابتي عن الأسئلة المتعلقة بتأثير معلمتي في حياتي. في هذه الأثناء وأنا جالسة في الاستوديو كنت أحاول تنظيم أنفاسي، وخاطبت نفسي بعصبية (في صمت) قائلة: «تماسكي. فالأمة كلها رأت بالفعل صورك وأنت في الصف الأول والثاني الابتدائي. فلا داعي لإحراج نفسك أكثر من ذلك بالبكاء أمام الكاميرا!»

وأخيرًا انتهى الفيديو القصير الذي تناول مدرستي وطفولتي. سألني بعدئذٍ السيد كريس عن سبب إصراري على العثور على معلمتي. ولحسن الحظ كان هذا هو السؤال الذي ظللت أحضر إجابته منذ الساعة الثالثة صباحًا. فأجبته أن كل شخص في حياته معلمة مثل السيدة وورنكي؛ كل شخص لديه معلم ترك أثرًا في حياته، لكن المعلمين في كثير من الأحيان لا يعرفون أنهم غيروا حياتنا. وأضفت أنني أريد السيدة وورنكي أن تعلم أنها «الشخص الذي غيَّر حياتي».

فأبلغني كريس كومو أن برنامج «جود مورنينج أمريكا» بحث عن معلمتي، ووجد شخصًا يمكنه مساعدتي في العثور عليها. ففكرت لحظةً وقلت في نفسي: «إن كنتم قد وجدتم شخصًا يمكنه المساعدة في العثور عليها، فلماذا لم تسألوه عن مكانها، وتستضيفوها اليوم؟!» ثم أفقت على صوت تصفيق وتشجيع حادَّين؛ ونظرت إلى كريس وسألته وأنا أبكي: «هل عثرتم عليها؟»

أخيرًا عثرنا عليها

ثم رأيتها. السيدة وورنكي. معلمتي السيدة وورنكي. إنها كسابق عهدها لم تتغير! لم تكن سيدة عجوزًا تتكئ على عصًا، بل حتى لم يبدُ عليها الكبر (بدَتْ في مثل سنِّي في

الواقع). إنه نفس الوجه ونفس الابتسامة ونفس الشخصية المحبة الحنونة. وضعت يديَّ على فمي. وظللت أردد: «يا إلهي ... يا إلهي ...»، ثم احتضنتها وظللت أبكي.

أول شيء سألتها عنه هل يزعجها ظهورها في التلفزيون الوطني بسببي. وأجابتني بأن ذلك يشرفها. ثم سألتها هل تتذكرني.

فقالت: «بالطبع أتذكرك!»، واتجهنا معًا نحو كريس كومو للجلوس في مقاعد الضيوف.

لم أصدق على الإطلاق أنني أجلس بجوار السيدة وورنكي. ومددت ذراعي مرتَين لأتحسَّس ذراعها؛ كأنني أردت أن أتأكَّد أنها تجلس إلى جواري بالفعل، وأنني لا أحلم بها كما اعتدت طوال حياتي.

علمت خلال اللقاء أن المنتج براين اتصل بالسيدة وورنكي، وأخبرها أن إحدى طالباتها السابقات تبحث عنها، وعلى الفور سألته: «أهي سيندي؟» تُرى هل تذكرتني بسبب العلاقة الوثيقة التي ظننت أننا تمتَّعنا بها، أم لأنني كنت طالبةً مزعجة إلى حدٍّ بعيد! قالت السيدة وورنكي للسيد كريس كومو: «كانت بيننا علاقة آنذاك»، وأضحكت الحضور في الاستوديو بإحدى دعاباتها حينما قالت: «يسعدني أن البرنامج لا يدور حول السجناء الذين أُفرِج عنهم، ويبحثون عن المعلمين الذين دمَّروا حياتهم.»

سُمع صوت ضحك كل مَن كان في موقع تصوير البرنامج، وهو ما خفف من حدة التوتر ومسح أثر الدموع التي انهمرت منذ لحظات. لم أتمكن من مراقبة ما يحدث في الاستوديو إلا بعد قطع البرنامج بفاصل إعلاني، فرأيت وجوهًا ملطخة بالدموع في كل مكان؛ بين الحضور وطاقم البرنامج، ورأيت الدموع تنهمر على وجنتَي زوجي الضخم الذي عمل في السابق محققًا في الشرطة ورجل إطفاء.

بعد انتهاء فقرتنا وخروجنا لإحضار أغراضنا، اجتمع الناس حولنا من جميع الغرف الجانبية والمكاتب، محررون وغيرهم، وأراد كل شخص منهم أن يخبرني بنفس الشيء؛ قصة المعلمة التي ألهمته. فقد أرادوا جميعًا أن يسردوا لي قصة المعلمة التي غيرت حياتهم.

وفي وقت لاحق ذلك اليوم، ظهرت تعليقات على موقع برنامج «جود مورنينج أمريكا»:

> «استمتعت كثيرًا بقصة المعلمة التي عُرضت هذا الصباح. ولديَّ طلب بسيط. أيمكنكم عرض تلك الفقرات قبل الساعة ٨:٣٠ لأنه الوقت الذي أضع فيه مكياجي قبل الذهاب إلى العمل؟ إذ إنني، في موعد البرنامج الحالي، إما أن أتأخر على عملي أو أذهب ووجهي ملطَّخ من أثر الدموع.»

أنا والسيدة وورنكي نحتفل بلمِّ شملنا، ومعنا كريس كومو مذيع برنامج «جود مورنينج أمريكا». السيدة وورنكي تمسك بنسخة كتاب «اقرأ لي وسأقرأ لك» التي اشترتها لها.

«إن قصة المرأة التي تأثرت بمعلمتها في الصف الأول جعلتني أبكي من السعادة. فما زلت أندهش عندما أسمع قصصًا عن كيف يمكن لشخص أن يغيِّر حياة شخصٍ آخر. كانت القصة مثيرة للعواطف وملهِمة وجميلة. تأثرت وسعدت لسماع قصتهما.»

الآن بعد مرور عدة أشهر، سمعت آلاف القصص لمعلماتٍ غيَّرن حياة طلابهن. وكلما سردت قصة معلمتي التي غيرت حياتي — أو شاهد أحدهم مقطع الفيديو الذي ظهرت فيه في ذلك البرنامج — سمعت قصصًا لا تنتهي عن معلمات أخريات. لقد أثبتت الإجابة التي قلتها لكريس كومو صحتها: «كل شخصٍ لديه سيدة وورنكي في حياته. كلنا نذكر المعلمين المميزين الذين تركوا أثرًا كبيرًا في نفوسنا.»

بالطبع ليس الكل محظوظًا مثلي بالعثور على ذلك المعلم المميز. عندما افترقت أنا والسيدة وورنكي ذلك اليوم لتعود كلٌّ منا إلى منزلها وحياتها قبل لقاء يوم ٥ سبتمبر ٢٠٠٨، كنت متأكدة أن شيئًا قد تغيَّر على نحو ما؛ وأن المرأة التي غيَّرت حياتي عام ١٩٦٣ على وَشْك أن تغيِّر حياتي مرة أخرى. لم أعلم كيف سيحدث ذلك بالضبط، ولم أعلم ما

الدور الذي ستلعبه في حياتي القادمة؛ فنحن لسنا إلا غريبتَين جمعتهما لحظة قصيرة منذ زمن طويل. ولكنني عندما نظرت من شباك نافذة طائرتي المتجهة إلى كارولينا الشمالية، تيقَّنت أنني لن أكون أبدًا نفس الشخص بعد ذلك اللقاء؛ فقد عثرت أخيرًا على السيدة وورنكي.

الفصل الثامن

التفكر في الأمر

«أعتقد أنه من الرائع — بالرغم من كل شيء — أن يحصل المعلمون على الدعاية والتقدير اللذين يستحقونهما.»

باربرا وورنكي، ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨

أول شيء فعلته بعد عودتي إلى منزلي في نيويورك، وانتهاء تجربتي في استوديو برنامج «جود مورنينج أمريكا»؛ هو الجلوس وكتابة خطاب للسيدة وورنكي. في الواقع استعنت بالآلة الكاتبة بدلًا من كتابة الخطاب بخط اليد، وشرحت في ديباجته كم كان لديَّ الكثير لأقوله ولأخبرها به، وأن الآلة الكاتبة ستساعدني في ذلك.

قضيت معها وقتًا قصيرًا بعد ظهورنا معًا في التلفزيون الوطني؛ إذ تناولنا إفطارًا سريعًا عقب انتهاء البرنامج، ثم اضطرَّت السيدة وورنكي وزوجها إلى المغادرة ليلحقا بطائرتهما. (كما هو معلوم سبتمبر هو موسم الأعاصير، وكانت هناك عدة عواصف بالفعل؛ لذا أراد آل وورنكي العودة إلى شيكاغو في أقرب وقت ممكن.) وبالرغم من قصر المدة التي قضيناها معًا في المطعم فقد تبادلنا الكثير من المعلومات والأخبار. جلست السيدة وورنكي تتناول الأومليت، لكنني لم أتمكَّن من تناول الوافل الموضوع أمامي من الإثارة، ونحن نستغرق في ذكريات المدرسة التي ظلَّت حيةً في ذاكرتَينا.

الممتع في الأمر أننا لم نحتَجْ أكثر من دقيقتَين لننتقل من حوار معلمةٍ وطالبةٍ إلى حوار معلمتَين. فرحت كثيرًا عندما سمعت السيدة وورنكي تحكي قصتي من وجهة نظرها؛ بما في ذلك انطباعها الأول لدى رؤية الفصل الذي في القبو. أخبرتني أنها تلقَّت عرض الوظيفة قبلها بوقت قصير؛ لذلك كانت سعيدةً بتلك الفرصة وقلقةً للغاية ألَّا تعينها خبرتها السابقة في التدريس — لمدة عام في المدرسة الثانوية — في تخطي

ذلك الموقف. وهكذا عندما انفتح الباب ورأت السيدة وورنكي الفصل لأول مرة شعرت بالراحة. فقد لاحظت أن الفصل منعزل ويوفر قدرًا كبيرًا من الخصوصية بعيدًا عن باقي الفصول، وهكذا لن تخضع للمقارنة بالمعلمات الأخريات كما أخبرتني. وأضافت أنها شعرت بارتباط قوي مع القبو لأن كليهما «يبدأ مشواره من الصفر»؛ إذ شعرت أن الغرفة المظلمة في القبو صفحة خالية يمكنها كتابة أي شيء عليها، وهكذا زادت ثقتها في نجاحها.

ثم حدثتني السيدة وورنكي عن يوم اغتيال الرئيس كينيدي بعد أسابيع قليلة من انتقالنا للفصل. ومع أنني لا أذكر الكثير عن ذلك اليوم — سوى أننا غادرنا المدرسة مبكرًا — فإن ذكرياتها كانت زاخرة بالتفاصيل والأحاسيس. كانت السيدة وورنكي عام ١٩٦٣ ناخبة شابة تكنُّ الاحترام الشديد للرئيس كينيدي، وتذكرت بوضوح الرعب والكآبة اللذين خيما على الجميع وقتها. أخبرتني أننا كنا في المكتبة ذلك اليوم ننصت إلى أمينة المكتبة وهي تقرأ لنا، حين دخلت معلمة أخرى لتبلغها بما حدث. فأعادتنا السيدة وورنكي إلى الفصل على الفور، لنحضر أغراضنا ونعود إلى منازلنا. وهي تستعيد أحداث اليوم استشعرتُ الحزن في صوتها، وتخيلت نفسي مكانها؛ معلمة شابة تحاول السيطرة على مشاعرها والاهتمام بفصل مليء بطلاب الصف الأول الابتدائي. ثم عدت طالبة في الصف الأول تجلس في المكتبة تنصت إلى القصص، ثم تُجبر على العودة في الممر الطويل إلى الغرفة في القبو.

بعدئذٍ سألتني السيدة وورنكي عن طلاب آخرين كانوا في الفصل ذلك العام. وأبلغتها بأخبارهم، فعلى سبيل المثال أصبح جون الظهير الربعي لفريقنا في المدرسة الثانوية، وأصبحت سوزان معلمة علوم في المدرسة الثانوية. تطرق الحديث أيضًا إلى أخبار بعض العاملين في مدرسة براجتاون، مثل الناظر وأمينة المكتبة ومعلمين عدة. واستطاعت السيدة وورنكي أن تتذكر السيدة رايلي وأخبرتني أنها حضرت جنازتها. وعندما استمعت إلى قصتها وتخيلتها هي وزوجها في الجنازة تبدلت مشاعري. فالسيدة رايلي لم تكن معلمتي فحسب، بل كانت بمنزلة فرد من العائلة، وقد أحزنني التفكير في موت «أول» معلمة لي في الصف الأول الابتدائي. علمت أيضًا أن السيدة وورنكي عملت في التدريس عدة أعوام ثم أصبحت مصورة موهوبة. فأعربتُ لها عن رغبتي في رؤية صورها.

قبل أن يتجه آل وورنكي إلى المطار تبادلنا أرقام الهواتف والعناوين، لكن الوقت الذي قضيناه كان قصيرًا جدًّا. لهذا شعرت برغبة في كتابة خطاب؛ لأشرح فيه للسيدة

وورنكي بعض الأمور التي لم يسعفني الوقت أن أشرحها لها، أمور مثل سبب شعوري بعدم الثقة في الصف الأول، وشعوري بالرعب لوضعي في فصل لا تعيرني معلمته أي اهتمام. لكنني بدأت الخطاب باعتذار:

عزيزتي السيدة وورنكي،

قرَّرت أن أكتب الخطاب بمساعدة الآلة الكاتبة؛ مخافة أن أطيل وأظل أكتب وأحذف العبارات. في البداية أود أن أشكرك على حضورك إلى نيويورك بالطائرة، بالرغم من الأعاصير والعواصف الاستوائية الوشيكة. لا شك أن أفراد أسرتك مندهشون من المرأة المجنونة البالغة من العمر خمسين عامًا التي اضطرتك لقطع كل هذه المسافة. رجاءً أخبريهم أنني لست امرأة مجنونة، بل إن عملي في التدريس ... جعلني أشعر بضرورة إخبارك عن الأثر الذي تركته في نفسي.

بعد أن أرسلت الخطاب بيومَين، وجدت في صندوقي البريدي بطاقة من السيدة وورنكي. وقد ثبتت فيها صورة لزهرتَي توليب ورديتَين. وأشارت في الرسالة إلى «رحلتنا الخاطفة» إلى نيويورك، وأضافت أنها تضمنت أحداثًا أكثر مما يمكنها استيعابها. ثم شكرتني على إضفاء «معنًى» لحياتها. لم أفكر يومًا أنني أستطيع تغيير حياة المعلمة التي غيرت حياتي!

وفي رسالة إلكترونية لاحقة، أوضحت السيدة وورنكي أنها انتقت صورة زهرتَي التوليب بعناية، وأرفقتها بأول بطاقة ترسلها لي لترمز لي ولها. ثم وردتني بطاقات أخرى منها مع مرور الشهور، مرفق بها كلها صور فنية رمزية وذات مغزًى.

المدرب آربس والسيد روجرز

صادفني في حياتي معلمون كثيرون تركوا بصمةً حقيقية في شخصيتي المهنية. وبعيدًا عن تأثير والديَّ وجديَّ وأصدقائي المقرَّبين، فإن أكثر شخصَين أثَّرا في نفسي كانا المدرب سام آربس والسيد جاي روجرز.

درَّس لنا المدرب سام آربس الجغرافيا. لقد درسها لنا بشغف وبأسلوب ممتع. فتعلمنا ما هو أكثر من مواقع الأنهار وحدود البلدان. وكلما تعرفنا على ثقافات جديدة، دفعنا للتفكير المبدع. وشجعنا أن نكون ناشطين في مجال السياسة؛ فجعلنا نعمل في حملات سياسية ونتبادل الثقافات مع الآخرين في مجتمعنا. وكان مثلًا أعلى ساعد على تخفيف حدة التوترات العرقية التي سادت مجتمعنا المدرسي.

وقد أتيحت لي الفرصة أن أخبره بالدور الذي لعبه في اختياري العمل في التدريس. كنت أعمل مدرسة في مدرسة كاري الثانوية عندما اكتشفت أنه تقاعد. وذات يوم قابلته بالصدفة، وتمكنا من البقاء على اتصال لمدة وجيزة قبل وفاته.

أما جاي روجرز — الحاصل على لقب معلم العام على المستوى الوطني لعام ١٩٧٢ — فقد كان له كبير الأثر في حياتي وفي اختياري أن أصبح معلمة. كان معلمًا ممتازًا، وترجع كفاءته ليس فقط لتمكنه من مادته، بل أيضًا لفهمه الجيد لطلاب المدرسة الثانوية واحتياجاتهم.

لم يتركنا نشعر بالملل، ولم يضيِّع أي لحظة، وإذا قصَّر أي طالب فإنه كان يتحمل عواقب تقصيره لا محالة. جعلنا نتحمل المسئولية. وعاملنا معاملة الناضجين. وكان يتوقع منا تحقيق الكثير. واعتاد أن يتجادل معنا (أدرك الآن أنها كانت مناقشات)، وقد جعلني أشعر عدة مرات أنني غاضبة أو محبطة لأنه دفعني لتغيير رأيي وتحدي نفسي.

كل جُل همه أن يضمن نجاحنا بعد انتهاء المدرسة الثانوية. لذا شجعنا على الانضمام إلى الأندية، والمؤسسات الاجتماعية المختلفة في مجتمعنا. وحرص السيد روجرز على أن نقضي وقتًا ممتعًا، ونتعلم في الوقت نفسه معلومات أكثر من الحقائق والتواريخ المجردة.

أعمل الآن في رابطة معلمي كارولينا الشمالية. وفي عام ٢٠٠٥ كرَّمت الرابطة جميع المعلمين الحاصلين على لقب معلم العام على مستوى الولاية على مدار السنين. حينئذٍ تمكنت من شكر السيد روجرز أمام أقرانه من المعلمين وبعض من أقراني. واستمتعت كثيرًا بالاستغراق في الذكريات معه في ذلك اليوم.

أنجيلا فارذينج، مديرة مركز التدريس والتعلم، رابطة معلمي كارولينا الشمالية

نقل إرث السيدة وورنكي للآخرين

اتضح لي يومًا بعد يوم — بعد عثوري على السيدة وورنكي — كيف رسمت تجربتي في الصف الأول الابتدائي معالم طريقي في مهنة التدريس. أتذكر اليوم الذي رأيت فيه كينتون يرسم صور الأشخاص البرتقاليين. وعندما انحنيت على مقعده أناديه باسمه، بدا لي وكأنما سألت نفسي حينئذٍ: «ماذا كانت السيدة وورنكي ستفعل؟» وسرعان ما عرفت الإجابة. كانت السيدة وورنكي ستتقبل كينتون كما هو، وهذا ما فعلته. فوجود نموذج تلك المعلمة الحنون أمامي منذ سنٍّ مبكرةٍ ساعدني على محاكاة طباعها. وبشكل ما يمكنني القول إنني «نقلت إرث السيدة وورنكي للآخرين»، وذلك عندما عاملت طلابي بنفس الاهتمام الذي عوملت به في الصف الأول الابتدائي.

لا شيء أيسر من منح الاهتمام للطلاب المطيعين المحبَّبين، لكن السيدة وورنكي علَّمتني أن كل طفلٍ يستحقُّ الاحترام والتأييد، وقد ظلَّت تلك الفلسفة محور عملي في التدريس على مدار ثلاثين عامًا.

عندما أفكِّر في أكثر الطلاب الذين احتاجوا إلى مساعدتي — الذين احتاجوني أن أرد معروف السيدة وورنكي إليهم — أتذكر بالطبع جوي والغرفة المطاطية، لكنني أتذكر ماريان أيضًا، وهي طالبة أخرى درَّست لها لمدة قصيرة في العام نفسه. كانت ماريان غارقة في المشكلات عند وصولها الصف السابع، وقد اعتادت على عدم انتظامها في الحضور إلى الفصل؛ لأنها قضت أغلب العام الدراسي تَدرس في مدرسة متخصصة في التعامل مع المراهقين المضطربين. أما الوقت الذي قضته معي في الفصل، فكنت أعاملها باحترام وأُبدي لها الاهتمام.

وقد وردني خطابان طويلان من ماريان أرسلتهما وهي في تلك المدرسة:

> أصبحت أحرز تقدير «ممتاز» و«جيد جدًّا» في اختباراتي. وبدأت أرتدي ملابس تناسبني، وتوقفت عن تعاطي المخدرات والتهرب من المدرسة. لقد غيرت نظرتي تمامًا للحياة والمدرسة والأصدقاء والعائلة ومستقبلي وعلاقاتي. ... هذا ما وددت إخبارك به، بالإضافة إلى أمر آخر؛ هو أنك كنت معلمتي المفضلة وأفضل معلمة درست لي طوال حياتي. أنا لا أكذب. إنها الحقيقة.

وللأسف شاهدت ماريان بعد أعوام في نشرة أخبار المساء مكبلة اليدين ترتدي زيًّا برتقاليًّا. كانت متهمة بالاشتراك في جريمة قتل، وأدينت بالجرم فيما بعد. منذ ذلك الحين وأنا أسأل نفسي باستمرار هل كان ثمة ما بإمكاني عمله لتغيير مسار حياتها. الآن عندما أنظر بعين المعلمة المتمرسة إلى طلابي — الذين واجهوا صعوبات منهم والذين نجحوا — أكون متأكدة على الأقل أنني فعلت «مهما تطلب الأمر» لأكون معلمة تهتم بطلابها، وتلهمهم الصواب.

أنا لا أدَّعي أنني معلمة عظيمة. لكنني عندما أفكر في تاريخي المهني أجد مواقف كثيرة خالفت نهاياتها كل التوقعات. وأنا أحاول قدر الإمكان تتبع حياة الكثير من الطلاب الذين يعيشون في مجتمعي، ولاحظت أن بعض الذين بدءوا حياتهم بنظرة متشائمة للمستقبل قد وجدوا السعادة بالفعل. ومع أنني لا يمكنني مطلقًا أن أنسب الفضل في نجاحهم لنفسي، فإنني سعيدة أنني فعلت كل ما بوسعي خلال الوقت القصير الذي

قضيته معهم؛ لضمان أن يكونوا مواطنين أصحاء وسعداء. أعتبر عملي في التدريس فرصة أستغلها استغلالًا جادًّا للتأثير في طلاب الفصل كل يوم. ويرجع أصل فكرتي عن التأثير في الأطفال إلى تجربتي في فصل السيدة وورنكي.

أتيحت لي الفرصة مؤخرًا لأن أسرد قصتي أمام كارولينا الشمالية عندما حزت لقب معلم العام بالولاية؛ إنها القصة التي قرأتها للتو لطالبة في الصف الأول عانت عدم الشعور بالثقة، ثم واجهت صعوبات في بداية عملها في مجال التدريس، وأخيرًا تعلمت كيف تكون مربية حقيقية. وبعد أن أسرد قصتي على الجمهور، أعرض عليهم مقطع الفيديو الخاص بلقائي بالسيدة وورنكي (والذي يمكن مشاهدته على موقع القسم الإخباري بشبكة إيه بي سي على العنوان التالي: http://abcnews.go.com/gma/story?id=5726538&page=1). ثم أقول لهم:

> كلما عرضت هذا الفيديو على جمهور، وردت إليَّ قصص مشابهة. فكل شخص لديه السيدة وورنكي في حياته. كل واحد منكم يجلس الآن ويفكر في السيدة وورنكي الخاصة به. نحن نشرف كل يوم — بوصفنا معلمين — بأن نكون السيدة وورنكي لأحد الطلاب.

بعد سرد قصتي على المربين الآخرين أضيف أمرًا آخر، **فنحن لا نشرف بهذا العمل فحسب، بل نحمل مسئولية كبيرة، إنه «التزام» في الواقع بأن نكون ذلك المعلم الذي يترك أثرًا.**

لقد سردت قصتي على آلاف الطلاب الذين سيتخصصون في مجال التدريس، والمعلمين المتدربين والممارسين. وفي كل مرة بعد انتهاء العرض، يصطفُّ الحضور كلهم لإخباري عن المعلمين الذين غيَّروا حياتهم. فالجميع متشوِّق لسرد قصته، مع ذكر السنة الدراسية التي حدث فيها ذلك، والموقف المهم الذي حدث مع ذلك المعلم.

كثيرًا ما أتلقَّى تعليقًا من أحد الحاضرين يخبرني فيه كيف حفزته على التدريس، أو دفعته للاستمرار في مهنة التدريس، وهذا يدهشني نظرًا لأنني احتجت لسنين طويلة إلى من يحفزني أو يدفعني للاستمرار! ففي أحد أيام السبت بعد أن ألقيت عرض «البحث عن السيدة وورنكي» الخاص بي في حرم إحدى الجامعات، اقتربت مني معلمة وأنا أجمع أغراضي استعدادًا للرحيل. كنت في عجلة من أمري؛ إذ تنتظرني عطلة نهاية أسبوع مزدحمة؛ فقد اقترب عيد ميلاد حفيدتي، وأردت شراء عدة مستلزمات قبل موعد الحفل، بما في ذلك الهدية. لكنني عندما استدرت لأواجه المعلمة الشابة رأيت الدموع في عينيها.

قالت لي: «أنا أواجه صعوبات في عملي. لقد حضرت اليوم وأنا غير واثقة من قدرتي على البقاء في مهنة التدريس. لكنكِ ساعدتِني — أنت والسيدة وورنكي — على إدراك الهدف وراء عملي. سأبقى في المجال. شكرًا لك.» في تلك اللحظة اكتشفت أنني أترك أثرًا إيجابيًّا ليس فقط في نفوس طلابي، بل في نفوس المعلمين أيضًا.

لم يمضِ وقت طويل على ذلك اللقاء، حتى تلقَّيت دعوةً لتقديم عرضي أمام مجموعةٍ من طلاب المدرسة الثانوية على مسافة تبعد عني ثلاث ساعات بالسيارة. ولما كنت قد حددت مسبقًا موعد اجتماع في الليلة السابقة للعرض، فقد أدركت أنني سأضطر للسفر بالسيارة ليلًا في وقت متأخر خارج الولاية، والمبيت في فندق في مدينة غريبة عليَّ. أضف إلى ذلك أن لديَّ موعدًا ظهيرة اليوم التالي، وهذا سيضطرني إلى مغادرة العرض الصباحي سريعًا، والقفز في سيارتي، ثم العودة بأسرع وقت للولاية.

وقد طرأت أمور أخرى مهمة في اليوم نفسه؛ إذ قررت السيناتور كاي هاجان زيارتي والتجول معي في مدرستي، وفي الليلة نفسها كان فريق جامعتي، جامعة كارولينا الشمالية في تشابيل هيل، يلعب المباراة النهائية للبطولة الوطنية لكرة السلة. توقعت أن يكون هذان اليومان طويلَين ومرهقَين، وحزنت لعدم تمكني من متابعة مباراة فريقي. فكرت بجدية في إلغاء العرض نظرًا لازدحام اليوم، وبُعد المسافة، وصعوبة وضع العرض في جدولي لذلك اليوم.

وبطريقة ما تمكنت من إنجاح الأمر. فقد بدأت اليوم مبكرًا، والتقيت بالسيناتور، ثم قدت السيارة إلى مدرسة بمنطقة تعليمية مجاورة، وقدمت العرض للمعلمين الجدد، ثم قطعت المدينة لإلقاء كلمة في عشاء أقيم على شرف معلم العام، بعدئذٍ تابعت مباراة كرة السلة عبر المذياع، وأنا أقود سيارتي في وقت متأخر من الليل في الطرقات المهجورة.

في الصباح التالي ألقيت كلمتي وودعت مضيفي، وهُرعت إلى بوابة الخروج لأتمكن من الوصول إلى وجهتي التالية في الموعد. وأنا أهم بفتح الباب، مدَّ شاب يده ليصافحني.

كان شابًّا أمريكيًّا طويلًا من أصل أفريقي في عامه الأخير من الدراسة الثانوية، وقال لي: «أود أن أخبرك بمدى أهمية كلماتك بالنسبة لي. حضرتُ لقاء اليوم بهدف تفويت المدرسة والبقاء مع أصدقائي. ولم أعلم مطلقًا أن كلماتك ستغير حياتي. لقد عقدت العزم. أريد أن أصبح معلمًا.»

فكرت كيف أوشكت على التملُّص من هذا العرض بالذات، وشعرت بالسعادة لحضوري، وبعظم المسئولية الملقاة على عاتقي، والالتزام بأن أكون شخصًا يترك بصمته في مهنة التدريس. وبالطبع هذه وسيلة أخرى لنقل إرث باربرا وورنكي للآخرين.

اكتمال الحلقة

في الفصل الدراسي السابق، أوكلت جامعة من جامعات كارولينا الشمالية مجموعة من الطلاب الذين سيتخصصون في مجال التدريس؛ مهمة إجراء حوار مع المعلمين الذين غيروا حياتهم. ولأن هؤلاء الطلاب كانوا شبابًا فلم تواجههم صعوبة بالغة في العثور على معلِّميهم السابقين، ولكن أسعدني أن تكون قصة اجتماع شملي بالسيدة وورنكي أول خطوة في طريق نشر تلك العادة واستمرارها، مثلما تظهر حلقة صغيرة في النهر بعد إلقاء حصاة واحدة، ثم تبدأ حلقات أكبر في الظهور.

سعدت سعادة غامرة، عندما بلغني منذ عدة أيام أن عضوة في مجلس إدارة منطقتي التعليمية شاهدت لقائي بالسيدة وورنكي على التلفزيون، وألهمها ذلك للبحث عن معلمتها التي غيرت حياتها. إنها قصة متكررة؛ فكثيرون ممن تابعوا قصتي يبحثون الآن عن معلميهم المميزين. على سبيل المثال وصلني هذا الخطاب من معلمة في كارولينا الشمالية تدعى جليندا:

> معلمتي المميزة هي دولوريس زبوريل التي درست لي اللغة الإنجليزية في الصف العاشر، وأحبت طلاب فصلنا حبًّا جمًّا، حتى إنها أصرت على أن تدرس لنا اللغة الإنجليزية العام التالي أيضًا. كانت معلمة ممتازة. وقد آمنت بشدة بالحرية الفكرية.
>
> وفي اليوم التالي وردني خطاب آخر من جليندا تقول فيه:
>
> بحثت عن أي شخص يحمل اسم زبوريل، اعتقادًا مني بأن الاسم غير مألوف، وأن أي شخص يحمله سيكون على صلة قرابة بمعلمتي في المدرسة الثانوية. وبالفعل عثرت على ابن أخيها. وهو سيساعدني في الوصول إليها! كم هذا رائع!
>
> إن سعادة جليندا أكبر دليل على أهمية الدور الذي يلعبه المعلمون في حياتنا.
>
> لي صديقة شرفت بالعمل معها منذ أعوام تدعى ناشوندا، وهي معلمة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، ومنذ وقت قريب أرسلت لي خطابًا تقول فيه:
>
> هل تعلمين أن قصتك حمستني للبحث عن معلمتي في الصف الثالث؟ كانت معلمة (بيضاء) في مدرسة كاثوليكية، أهدتني وأنا طفلة (فقيرة سمراء يعيرني

الجميع بذلك) أول إنجيل في حياتي، ومنحتني معه القدرة على إثبات خطأ الآخرين عن طريق الثقة في نفسي، بدلًا من الاستسلام لظروفي. ما زلت أحتفظ بذلك الإنجيل.

إن عثور المعلم على السيدة وورنكي الخاصة به، وإخبارها بالأثر الذي تركته في نفسه — سواء في طريقة تدريسه أو في حياته — وسيلة لرد الجميل لهؤلاء المعلمين المميزين. وقد أشارت السيدة وورنكي بهذه الفكرة في رسالة إلكترونية أرسلتها إليَّ بعد لقائنا في نيويورك. كتبت فيها: «يمكننا أن نطلق على ذلك الحلقة المكتملة».

استمعت مؤخرًا إلى توماس إم بلوك — المدير التنفيذي السابق لشركة إتش آند آر بلوك — يتحدث عن قراره الخاص بترك عالم الشركات، والعمل في تدريس الرياضيات. علقت بذهني إحدى عباراته على وجه الخصوص: «عندما نفعل شيئًا من شأنه إصلاح العالم، فإننا نصلح جزءًا من أنفسنا معه.» وكلما ألهمت قصتي طالبًا أو معلمًا شعرت بأنني أساهم في «إصلاح العالم». وفي كل مرة يحدث فيها ذلك تزداد ثقة تلك الفتاة الصغيرة، فاقدة الثقة في نفسها في الصف الأول، في نفسها، ويتحقق حلمها أن تكون المعلمة المميزة التي تترك بصمة في الآخرين.

ربما يبدو كلامي مكررًا (وقد تجده مطبوعًا على الوسائد، فلديَّ وسادة خيطت عليها عبارة «أنا أرسم المستقبل. أنا معلم») لكنني أقول: لا شيء أثمن من إحداث فارق في حياة شخص آخر. وسأظل ممتنة إلى الأبد للسيدة وورنكي لأنها علمتني كيف أفعل ذلك.

خاتمة

«تستطيع إحدانا الآن أن تحكي للأخرى عن كل الأمور التي حدثت في حياتها، خلال الفترة التي لم نلتقِ فيها، وأتمنى أن تستمر علاقتنا التي توقفت لمدة أربعين عامًا.»

باربرا وورنكي، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٨

لم أعرف شيئًا عن السيدة وورنكي لأكثر من أربعين عامًا، قبل اجتماع شملنا في مدينة نيويورك في سبتمبر ٢٠٠٨. ولم أجلس في فصلها منذ عام ١٩٦٤؛ أي قبل أربعة وأربعين عامًا. أما الآن فأعتبرها صديقة عزيزة، ولا أكاد أذكر كيف قضيت تلك الأعوام التي لم أعرف فيها شيئًا عنها.

نحن نتبادل الرسائل الإلكترونية بانتظام، ونتحدث عن أمور حياتنا وأبنائنا وأحفادنا وآلامنا ومتاعبنا. ونناقش أخبار الرياضة؛ فالسيدة وورنكي من مشجعي فريق كابس للبيسبول، وأنا أحاول أن أبقيها على اطِّلاع بآخر أخبار فريق بانثرز في دوري كرة القدم الأمريكية، وفريق تارهيلز لكرة السلة التابع لجامعة كارولينا الشمالية. كانت السيدة وورنكي أول شخص أتصل به — بعد والدتي وأبنائي — لأخبرها بتأهلي ضمن أربعة مرشحين نهائيين لنيل لقب معلم العام على المستوى الوطني لعام ٢٠٠٩. لا يمكن للكلمات أن تصف مدى سعادتها عندما أخبرتها، فقد ظللنا نتحدث ونبكي عبر الهاتف كطفلتَين صغيرتَين في المدرسة. وسرعان ما وصلتني إحدى الصور التي التقطتها، وكانت لزهرة برتقالية مشرقة، تقبع وسط مجموعةٍ من الأزهار البيضاء الرقيقة. وقد كُتب تحتها: «من الجيد أن يظهر تميزك وسط الجموع.» يا لها من عبارة تشجيعية حماسية!

ما زلت أرسل إليها شعري، وهو تقليد بدأته في مدرسة براجتاون منذ عقود، وما زالت ترسل إليَّ تعليقاتها التي أتشوَّق لقراءتها.

كنت أرتجف من الإثارة وأنا أفتح هدية تلقيتها في الكريسماس من السيدة وورنكي. وجدت في العلبة قطعتي زينة من الخزف كلتاهما على شكل قلم رصاص، كُتب على إحداهما «السيدة وورنكي» وعلى الأخرى «السيدة المعلمة». وكانتا أول قطعتَي زينةٍ أعلقهما على شجرتي ذلك العام.

ما زلت أشعر بالسعادة — كما كنت أشعر في طفولتي — عندما أرى اسمها مكتوبًا على خطاب في صندوقي البريدي. فأنا أعرف مسبقًا محتويات الخطاب؛ سأجد صورة جميلة التقطتها كاميرا معلمتي، وستكون صورة عميقة المغزى. غالبًا ما تأتيني صور السيدة وورنكي مع بدايات الفصول (فلديَّ صور لأوراق الشجر المتساقطة في الخريف وصورة للثلوج الشتوية)، أو عند زيارتها مكانًا مميزًا. وصورتي المفضلة لمدرسة تتكون من فصل واحد يقف شامخًا وسط الصحراء.

في أول بطاقة وردتني من السيدة وورنكي بعد اجتماع شملنا — التي أرفقت بها صورة زهرتي توليب — كتبت تلك الكلمات: «شكرًا لك على ما فعلتِ، والأهم من ذلك؛ شكرًا لك على ما حققتِ.»

وردي على تلك الكلمات هو: أشكرك يا سيدة وورنكي، ليس على ما حققته، بل على ما ساعدتني في تحقيقه. فجهودك في تشكيل شخصيتي خلال الأيام الأولى في حياتي، التي تتشكل فيها شخصية المرء، آتت ثمارها، وأصبحتُ معلمة مستعدة لفعل أي شيء لترك أثر إيجابي في حياة الأطفال، مثلما فعلتِ معي في فصل مظلم في القبو. إن هذا الفصل ليس مكانًا أتذكره فحسب، بل هو جزء من شخصيتي أحمله بداخلي. وسأظل للأبد ممتنة أنني قابلتك هناك.

كل شخص لديه سيدة وورنكي في حياته

أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بمتابعة التغيير الذي أحدثته معلمتي في الصف الأول في حياتي. على مر السنوات كلما قصصت تلك القصة على زملائي المعلمين والمربين المستقبليين وأصدقائي، أخبرني كل واحد منهم عن السيدة وورنكي الخاصة به. لا شك أنك أنت أيضًا حظيت بمعلمٍ ترك أثرًا في نفسك؛ معلم قَبِلك كما أنت، معلم تحداك أن تحقق أكثر مما تتصور أنك تستطيع، معلم ألهمك. يسعدني أن تزور مدونتي www.thedreamteacher.blogspot.com وتخبرني عن المعلم الذي غيَّر حياتك.

هنـــداوي